وثائق الوحدة القومية
لاستقلال وادى النيل

المطبوع التاسع

بسم الله الرحمن الرحيم

«هاؤم اقرءوا كتابيه»[1]
قرآن كريم

مصر بين شقى الرحى

الجبهة – المحادثات السياسية

ذكرت الوحدة بنشرتها الأولى (مصر بين شقى الرحى) بتاريخ ٤ من نوفمبر سنة ١٩٣٤ :
تتخذ الأمم الحية من الشدائد ما يشد العزائم ، ويحفزها للقيام بما يجب أن تقوم به إرضاء لله والوطن ، لا إرضاء لبعض الناس . ! .

لقد خلقت إنجلترا فى الشهور الأخيرة فى الجو مشاكل تريد بها أن تنفذ مرحلة من مراحلها الاستعمارية المبينة من عهد بعيد لاستعباد وادى النيل ؛ وبينا نراها – مع قوتها – حكومة وشعباً تكون جبهة واحدة ، وتقف موقف الحزم والشدة تريد أن تملى إرادتها وتضرب ضربتها – ترانا – مع ضعفنا – وكل حزب بما لديهم فرحون : جعلنا الوطنية تنافساً فى المصالح الضخصية وقتالاً فى سبيل الحكم ، إذ بردت الوطنية فى صدورنا ، واستعبد الغرور قلوبنا واستذلت المطامع رقابنا ، ولم تنسنا الشدة – ولو إلى حين – تلك الأحقاد والمطامع الشخصية والنزعات الحزبية ، فوجد الغاصب فينا مطية لتنفيذ مآربه ، وكسب على طول الخط وخسرنا ، وأصبحنا « ومصر بين شقى الرحى ، فلا الغاصب يرحمها ولا أبناؤها ينصرونها .

وجاء فى ختام النشرة . . . إنا نهيب بالزعماء أن يبصروا نور الحق فينكروا ذواتهم ، ويترفعوا عن إشباع مطامعهم ، ويتناسوا أحقادهم ، وينظموا صفوفهم ، ويوحدوا مجهوداتهم ضد الأغاصب فى سبيل خلاص بلادهم . .

كما نهيب بالأمة ألا تستسلم بعد اليوم وألا تحسن الظن بمن كانوا حتى اليوم شرا ووبالا عليها ، وأن تعتمد على نفسها فى استرداد حريتها ، فليس ينفع الشعوب لتحريرها سوى العمل الإيجابى .

(١) سورة الحاقة / ١٩ .

وذكرت الوحدة بنشرتها الثانية « مصر بين شقى الرحى » بتاريخ ٢٦ من نوفمبر سنة ١٩٣٤ :

بينا فى الكلمة السابقة أن الإنجليز هم البلاء ، ولم نحل الأمة من اللوم على استسلامها ؛ كما أننا حمّلنا من تصدوا للزعامة فينا مسئولية ما وصلنا إليه من تأخر فى جميع مرافق الحياة لتنكبهم طريق الرشاد وركونهم إلى وعود الغاصب برغم وضوح بطلانها وأتباعهم سياسة حسن الظن به وبرغم تعدد افتياته على حقوقنا ، وتدخله فى الصميم من شئوننا ، وميلهم إلى سياسة الانتظار برغم ما أدت إليه من إماتة الشعور الوطنى وقتل روح العمل !

وأهبنا بالأمة ولا نزال نهيب بها ألا تستسلم ، وأن تتيقظ وتعمل ؛ كما ناشدنا المتزعمين ، ولا نزال نناشدهم بحق الوحدة الممزقة – أن يطرحوا التنابذ والشقاق ، ويترفعوا عن التمسح بالأعتاب ، والتزامى على كراسى الحكم ويوحدوا مجهوداتهم ضد الغاصب والغاصب وحده ، ويجمعوا كلمتهم على ميثاق قومى عام أن كانوا فى وطنيتهم صادقين ؛ إذ أن الوطنية الصادقة لا تقر تعدد الأحزاب فى بلد تدنس أرضه المقدسة قدمُ الغاصب ؛ كما لا تقر حسن الظن بالخصم والركون إلى خططه ، وتحويل النضال عنه إلى أبناء الوطن الواحد ؛ بل على العكس هى التى توجد فى الأمة كتلة واحدة تخلق فيها عقيدة سليمة ، وتغذيها بلبان كراهية الغاصب والعمل على تقلص ظله ، وفوق هذا وذاك هى الوطنية التى تعمل ولا تتكلم . .

أراد الإنجليز أن تستقيل الوزارة (إشارة إلى وزارة صاحب الدولة عبد الفتاح يحيى باشا) مصحوبة بسخط الأمة فاستقالت ، وكان ما أرادوا برغم أن رئيسها لم يبن استقالته على النحو المعروف من ضعف الصحة وطلب الراحة ، بل سبب استقالته بتدخل الإنجليز وعرضهم رغبات رأى دولته أن فى تحقيقها تفريطاً فى حقوق البلاد .

وأراد الإنجليز أن تكون الوزارة الحالية (إشارة إلى وزراة صاحب الدولة توفيق نسيم باشا) بالشكل الذى شكلت به فكانت ، وتفاءل المتزعمون خيراً لرضا الإنجليز عنها ، وتلك لعمر الله سنة خاطئة ضارة ، فقابل الشعب الوزراة بالفرح والتهليل ، وهى المشكلة وفق هوى الإنجليز ومشيئتهم . فإلى أى طريق نحن مسوقون ؟ وأى عقل يقبل أن مصلحة الإنجليز الغاصبين تتفق ومصلحة الأمة المهضومة الحق ؟ وإلا فأين الخصومة إذن ؟ وعلام الجهاد ؟ هكذا أراد الإنجليز وهكذا أراد المتزعمون : أولئك لمصلحة بلادهم ، وهؤلاء لمصلحة ذواتهم ، ومصر المسكينة بين شقى الرحى . . . . . !

ألا وإن الرواية لم تتم فصولاً ، فهاكم الإصبع الإنجليزية تتدخل فى مسألتى ناظر الخاصة الملكية والوصاية ، وستستمر القافلة طالما أنها لاتجد من يصدها ، وستصل إلى بغيتها طالما أن فى مصر المطية الذلول !

هذا وقد أعلن صاحب الدولة رئيس الوزارة الحالية (محمد توفيق نسيم باشا) أنه سيلغى الدستور الحالى ، وكنا نود أن يتمم دولته التصريح بما سيتبع ذلك من إجراء : هل عودة إلى دستور سنة ١٩٢٣ ؟ أو وضع دستور جديد ؟ وسواء كان هذا أو ذاك فإنا نقف قليلاً بالأمة ، وخصوصاً بمن جروا وراء الخيال والأمل الكاذب ، وأملوا الأمة بالغنم الكبير من وراء الإلغاء والتعديل ، فنذكرهم – (إن نفعت الذكرى) – أن الإنجليز تدخلوا فى دستور سنة ١٩٢٣ ، وتدخلوا فى دستور سنة ١٩٣٠ ، وتدخلوا حتى فى قرارات مجلس النواب فى عهد الدستور القديم ، وهم سوف يتدخلون من جديد ويمعنون فى التدخل مادمنا على هذه الفوضى وما بقى لهم فى مصر أذناب ، وسوف تؤيد الحوادث القريبة دعوانا من تدخلهم فى النظام الجديد المنتظر .

وجاء فى ختام النشرة . . تلك كلمة بريئة نبرئ بها ذمتنا ، ونريح ضميرنا ، وسيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى والسلام على من اتبع الهدى .

وذكرت الوحدة فى نشرتها الثالثة « مصر بين شقى الرحى » بمناسبة مؤتمر الوفد بتاريخ ١٧ من ديسمبر سنة ١٩٣٤ .

تلجأ الأمة إلى عقد مؤتمر إذا ما أشكل عليها الأمر ، أو أظلم أمامها الجو ، وأدلهم الخطب ، فإذا كان الأمر خاصًّا بإحدى نواحى الحياة عقدته من الإخصائيين ، وإذا كان الخطب عاماً يمس مصالح الأمة فى مجموعها حتم الواجب الوطنى أن يكون قوام المؤتمر رجالات الوطن ، فلا يكون طائفيًّا أو حزبيًّا ، وإنما يكون وطنياً عاماً ، وبذلك وحده تكون قرارات المؤتمر عصارة الأفكار الناضجة على ضوء المصلحة العامة ، لا للمصلحة الخاصة ، سليمة لا عوج فيها ، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . . . . . !

وكنا نظن وقد انتهكت إنجلترا حرماتنا ، وأنهكت قوانا ، إنجلترا التى لا تدين فى سياستها الاستعمارية إلا بمبدأ التفرقة ، ولا تعتمد فى استعباد الأمم إلا على أبناء تلك الأمم أنفسهم ، فسلطت بعضنا على بعض ، ومزقتنا شيعاً وأحزاباً ، ومكناها منا ، فأغمدنا سلاحنا فى صدورنا ، وكنا جميعاً بلا تمييز ولا تفريق ضحية تلك السياسة الحرقاء !

كنا نظن – ونحن أحوج ما نكون إلى التضامن والقضاء على روح الحزبية البغيضة – وقد اكتوينا بنارها – أن الوفد (وقد تصدى للتزعم) يشعر بما نشعر به ، ويعلم أن الوطنية ليست احتكاراً ، وأن أعظم ما ترجوه الأمة الآن هو جمع الصفوف وتوحيد الكلمة وإقامة بناء الوحدة القومية والتمسك بالعروة الوثقى ، فلا يصيغ المؤتمر بصيغة حزبية ليكون المؤتمر بحق مؤتمرا وطنيًّا عامًّا .

هذا وقد نشرت الجرائد أخيراً برنامج ما سموه « المؤتمر الوطنى العام » فهل أعطى الوفد النصيب الأول من أبحاثه حقوق البلاد وتخليصها من غاصبيها أو هل ذكر السودان حياة مصر وروحها . والذى قيل فيه إن تركناه فهو لا يتركنا ؟ وهل تعرض لحدود وادى النيل وقد أصبحت نهباً لكل طامع ؟ وهل اهتم بأمهات المشاكل الخارجية وأفرد لها أبواباً وشكل لها لجاناً ، كما أفرد وشكل لتنظيم القرية المصرية والشئون الزراعية والصحية والاقتصادية إلخ ؟ كلا إن شيئاً من هذا لم يكن . !

أما وقد أهمل الوفد ما ادعى أنه بطل ميداته ، وأغفل قضية الوطن واشترى الغث بالسمين ؛ وحسب أن الأمة تقنع بالإشارة إلى قضيتها تلميحاً – فمؤتمره مؤتمر حزبى لبحث المسائل الداخلية ، وليس هو المؤتمر الوطنى العام الذى تنشده الأمة ، وتعلق عليه الأمل فى وضع ميثاق قومى عام !

هذا وسيكون المؤتمر عقيماً من الناحية الوطنية السليمة ؛ إذ إن الباعث عليه فى الواقع هو تنظيم الوفد لا المصلحة العامة استعداداً لما يمنى به نفسه من العودة إلى الحكم الذى لا يزال مغرما به برغم تكرر تجربته الخاسرة ، ومثل الوفد فى غرامه بالحكم كمثله فى تعشقه للمفاوضات برغم ما جر على البلاد فى الحالتين من الخسران المبين ! فما الحكم إلا أمانى النفعيين يسيل له لعابهم ، وهو إحدى وسائل إنجلترا المغرية الفاتنة التى تستعين بها على تنفيذ مشيئتها فى البلاد – ولا تريد بنا إنجلترا إلا شراً – وهو لهذا مذلة – وليس لنا إلا أن نلغى عقولنا لنجمع بين المذلة والجهاد فى سبيل الاستقلال التام ؛ كما أن المفاوضة سبيل العاجز القانع بالفتات اليائس من طول شقة الجهاد ، وهى أيضا لإنجلترا سبيل لقتل الروح الوطنى ، وتحويله عن الجهاد إلى سقط المتاع لتدرك بها مالا تدركه بالضغط والشدة ! وليس لنا إلا أن نلغى عقولنا أيضاً لنجمع بين حسن الظن بالغاصب ومد أيدنا ليدمخضبة بدماء إخواننا وبين كراهية ومناواة من هم ألد الخصوم !

وختعب الوحدة نشرتها . . . ألا قد تبين الرشد من الغى فياجلال الوطنية عُدْ ، واملأ القلوب إيماناً والنفوس حزماً وعزماً ، والروح تحفزاً وعملاً ، حتى يبصر القوم نور الحق ولا نرى فوق أرضها إنجليزيًّا . وتبرأ الأمة من عوامل الضعف .

* * *

فى إيمانها بحقها . وتركها صرعى الأباطيل والدجل السياسى - نهب مطامع الشيع والأحزاب التى تكالبت على فتات الدنيا الفانى ، وغفلت عن المصلحة العامة ، فاستحال العداء للغاصب حبًّا وسلاماً . وأصبح طلب الحق الكامل خيالاً . والمناداة بالتمسك به أضحت خيالاً . والتضحية فى سبيله عبثاً وضياعاً !

نحن والمفاوضة :

استدرجنا الدهاء البريطانى إلى المفاوضة ، وقبلها القادة والزعماء ، وزينوها للأمة كوسيلة منتجة لاستخلاص الحقوق برغم ما اشتهر به الإنجليز من سوء الطوية . وما تعوداه منهم ، من حنث للعهود والوعود التى زادت عن التسعين وسعى متواصل لإطفاء جذوة الوطنية . وتمزيق شمل الأمة . وتحويلها إلى قبلة غير التى يجب أن توجه إليها . وبرغم ماعُرف عنهم من مراوغة فى المفاوضات لكسب الوقت عسى أن تسعفهم الفرص بتحقيق أطماعهم الاستعمارية . وبرغم أن جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية الخاصة بمصر وسودانها والتى صادقت عليها عدة دول تقرر أن قضيتنا السياسية قضية دولية لها أهميتها وخطورتها فى إقرار السلام العالمى . . وإن أعوز القارئ الدليل من هذه الناحية فإنما نسوقه فى السطور الآتية :

معاهدة لوندرة فى ١٥ يولية سنة ١٨٤٠ بين إنجلترا وروسيا وبروسيا الخاصة باستقلال مصر الذاتى – نصت على أن تكون مصر ولاية عثمانية ممتازة مستقلة هى وسودانها استقلالاً داخليًّا . والفرمان السلطانى فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ والفرمان الثانى فى أول يونية سنة ١٨٤١ المحددان لهذا الاستقلال ، وعقد امتياز قناة السويس عام ١٨٥٦ والاتفاقات الدولية الخاصة بإنشاء المحاكم المختلطة ، وصندوق الدين العمومى والمراقبة الثنائية عام ١٨٧٦ . وقانون التصفية عام ١٨٨٠ . واتفاقية طرابيا فى ٢٥ يونية عام ١٨٨٢ بين فرنسا وإنجلترا وروسيا وإيطاليا وألمانيا والنمسا الخاصة بعدم انفراد أى دولة بأى منفعة أرضية أو أى امتياز أو نفع تجارى خاص لرعاياها دون أن يحصل عليه رعايا الدول الأخرى . واتفاق لوندره الخاص بتوزيع الميزانية المصرية عام ١٨٨٥ . ومعاهدة الآستانة الخاصة بحيدة قناة السويس وحماية المرور فيها عام ١٨٨٨ .

هذه كلها سجلت أن المسألة المصرية دولية ، بل هى جزء لا يتجزأ من المسألة الشرقية .

نعم برغم كل هذا وقع القادة والزعماء – مع الأسف – فيما نصبته إنجلترا من شراك . وكان أن حصرت القضية بيننا وبين الإنجليز وتعددت المفاوضات وإنجلترا تخرج فى كل مفاوضة من كسب إلى كسب ، وانتهت الحال بوصولها إلى غايتها التى طالما حلمت بها وهى جعل مركزها الباطل شرعيًّا فى وادى النيل بمعاهدة سماها البعض معاهدة الشرف والاستقلال ! والله يعلم وأولوا الضمير والوطنية يعلمون أنها وثيقة الخزى والاستعباد !

والآن :

الآن وقد نادت الأمة جمعاء بالجلاء ووحدة وادى النيل فإنا نرجوا أن تكون الصيحة من الأعماق والغضبة

مصرية ، وكنا نرجو أن يصحبها اتعاظ القادة والزعماء بدروس الماضى القاسية ، فلا يجروا الأمة إلى مفاوضة أخرى لتبرأ من داء عضال ، وتعالج الموقف بالوسيلة الفعالة التى عالجه بها أمثال وشنجتون محرر أمريكا الذى أبى إن يفاوض وعلى أرض الوطن جندى إنجليزى واحد . وقال عبارته المشهورة والتى اتخذت من بعده شعاراً « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » !

فإيماننا الذى لا يتزعزع . والذى نطمع فى إن تؤمن الأمة جميعها به وتجاهد على أساسه (وقد خاب الأمل فى الزعماء أو كاد — أن المفاوضات وما تتمخض عنه من معاهدات أو محالفات أو مشاركة إلى آخر ما هنا لك من مسميات إن هى إلا إحدى وسائل المستعمرين لإذلال الشعوب وإغرائها بالباطل ، ولا يرضاها إلا كل شعب رضى المذلة والهوان . وسلم بيده سيف إعدامه للجلاد !

كما نؤمن أن الركون إلى ما قررته المؤتمرات (كمؤتمر سان فرانسيسكو) وما سجلته مواثيق الدول البرى (كميثاق الأطلنطى) وما شكلته تلك الدول من هيئات (كمجلس الأمن العام) تعلق بوهم باطل وجرى وراء سراب !

فالقرارات والمواثيق قصاصات ورق تستغلها الدول القوية وتفسرها دائماً لمصلحتها ضد الدول المستضعفة وهيآة التحكيم أقرب ما تكون إلى عصابات لصوص للسطو على الأمم الضعيفة وتوزيع الأسلاب منها إلى هيآت تقيم العدل والإنصاف . وتعمل على إقرار السلام .

وهل قدم بنا العهد حتى ننسى مهزلة ومأساة عصبة الأمم التى قامت بعد الحرب الكبرى الأولى فلا تأخذ منها الدرس وأى درس ؟

إن التاريخ قديمه وحديثه لم يرو أن أمة رزئت بما نحن فيه استردت حقها فى الحياة وأعادت غابر مجدها بمفاوضة المعتدى على ذلك الحق ، العابث بذلك المجد . أو الاطمئنان إلى تلك المسميات التى تظهر على المسرح الدولى إثر كل حرب ، بل روى التاريخ ويروى أن الأمم تنال حقها وتستعيد مجدها بالإيمان بذلك الحق والاعتماد على نفسها فى النضال والتسلح بأسلحة « العلم والروح والمال » .

أما والقوم لايزال يداعبهم الأمل الباطل ويظنون خطأ أن الطبيعة الإنجليزية قد غيرتها الأحداث والحوادث ، فدعوا للمفاوضة بل طلبوها . ووقفوا من الغاصب موقف المستخذى . ثم ضيعوا وقتهم ووقت الأمة معهم عبثاً فى بحث الأساس إن كان صالحاً أو غير صالح — فإنا نرجو مخلصين أن ترتطم المفاوضات بصخرة الإيمان بالحق فى الجلاء الشامل والاستقلال التام الناجز لوادى النيل من منابعة إلى مصبه .

إنا لنرجو ذلك وإنا له لمرتقبون .

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

القاهرة فى ٢٥ من ربيع الآخر ١٣٦٥
٢٩ من مارس ١٩٤٦

المطبوع العاشر

مصر بين شقى الرحى

نـــــــداء

حضرة الأخ المحترم

كبر على بعض ما ندعوهم إليه . وأوجس بعض منا خيفة ، وظنوا بنا ظن السوء وعلم الله أننا أردنا الإصلاح ما استطعنا وكنا بالحق مبشرين وبسوء المغبة منذرين .

فلم ننطق عن هوى ولم نقل شططاً يوم أن أطلقناها صيحة جريئة بريئة وناديا بالوحدة القومية منذ سنين وقد رأينا فتناً كقطع الليل المظلم :

رأينا الوطن المعذب المنكوب نهباً لكل طمع ، تضافر عليه تخاذل بنيه وجشع عاصبيه !

ورأينا الشعب شيعاً وأحزاباً كل حزب بما لديهم فرحون ، خلوا من أسلحة النضال ضد الغاصب ، فلا إيمان ولا علم ولا قوة ولا مال ، مغلوباً على أمره يلهو حيث يجد العاملون ، ويرجع القهقرى حيث يبنى للمجد البانون !

رأينا القادة إلههم هواهم يلمزون أنفسهم ويتنابزون بالألقاب ، ويتناحرون على الفتات يريدون حرث الدنيا ويبغون فى الأرض بغير الحق وللحق هم كارهون !

ورأينا الغاصب وهو العريق فى الاستعمار الحاذق لأساليب الختل والخداع يكاد يصل إلى أمنيته من تصحيح مركزه الباطل فى وادى النيل بصك العبودية والاستعمار ، والجمع مشتت والكلمة متفرقة والصفوف متصدعة والكل متنافس فى تسليم البضاعة غافل عن الخطر المحدق !

ورأينا العالم سريع الخطى نحو إعداد الجيوش ومعدات الدمار ووسائل القهر لحرب مقبلة يشبع بها أطماعه ، ويروى غلته على حساب الشعوب المستضعفة الغافلة

نعم دعونا قومنا منذ سنين أن تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نخدم إلا الوطن ولا نعادى إلا

الغاصب وأن نتمسك بالوحدة القومية ونبنى كياننا من جديد على أساس تفهيم الشعب حقه وتطهير عقول الناشئة من أباطيل السياسة وتضليل محترفيها وغرس بذور العقيدة السياسية الصحيحة وتعهدها بالنمو لإقامة ما تصدع وتأليف ما تفرق ، وتكون الأمة صفًّا واحداً أمام الغاصب .

وكان من علامات التوفيق أن الوقت لم يطل بنا وبقومنا حتى نطقت الحوادث ، وزحزحت من الغشاوة التى على الأبصار ، وخففت من القسوة التى تملكت القلوب وكاد القوم يلمسون الحقيقة وما كانت بخافية لولا أن لكل آن أوان وأصبحنا ونغمة القومية محببة إلى القلوب والأسماع .

ولئن كانت الوحدة القومية لازمة يوم أن نادينا بها من سنوات إنها اليوم لنا ألزم لتحرير وادى النيل وقد حصره الغاصب بشباك المفاوضة فى وضع شاذ وقيده بأغلال تأباها أمة ترجو الحياة الحرة ، وتفهم ثمنها !

وإنا قياماً بالواجب نواصل دعوتنا إلى الوحدة القومية ونغزو بها القلوب المقفلة ؛ حتى تصبح عقيدة الجميع : فإما إلى الصدر بقوة ، وإما إلى القبر بشرف وفخار !

والوحدة القومية إذ تكتب هذا إليكم ترجو أن تعتمد بعد الله تعالى على مؤازرتكم فى تحقيق رسالتها التى عاهدت عليها الله من الرجوع بالأمة المصرية إلى إيمانها الثابت بحقها فى الاستقلال الكامل لوادى النيل من منبعه إلى مصبه والعمل فى صمت وقوة على جعل ذلك الاستقلال الكامل حقيقة واقعة والسلام عليكم ورحمة الله؟

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

دعوتنا من أجل مصر ولمصر وفى سبيل مصر :

من أجل مصر ندعو دعوة صادقة خالصة إلى طرح التنابز والشقاق وجمع الصفوف وتوحيد الجهود وإنكار الذات لتحرير وادى النيل من الاحتلال بجميع مظاهره .

ولمصر نعمل فى صمت وحزم على خلق الشباب بل الأمة كلها خلقاً آخر : سنخلق من الفرقة اتحاداً ومن التنابذ إخاءً ومن العداء سلاماً .

سنمزق ثوب الحزبية البغيض المهلهل ، وسنلبس ثوب القومية المحبب القشيب .

سنعنى بالقلوب الخاوية فنعمرها بالعقيدة ، وبالنفوس السقيمة ، فنطهرها بالفضيلة ؛ وبالأجسام الهزيلة ، فنقويها بالرياضة وبالعقول الضعيفة فنغذيها بالعلم والعرفان .

وفى سبيل مصر نضحى بالروح والمال والولد فلا تستقر لنا حال أو تهدأ لنا حركة حتى تحيا حياة العزة أو نموت فى سبيلها كراماً .

القاهرة فى ١٠ من محرم سنة ١٣٥٧
يوم السبت ١٢ من مارس سنة ١٩٣٨

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل
شارع عماد الدين رقم ١٤٥

مصر بين شقى الرحى

٣١ مارس أو موقعة رشيد سنة ١٨٠٧

ترى ؟ هل ترجع الأمة البصر إلى مائة وإحدى وثلاثين سنة خلت ، فتذكر مرحلة من مراحل سياسة الاستعمار البريطانى ، وترى صورة من مراحل سياسة الاستعمار البريطانى ، وترى صورة من صور الاستهتار بالحقوق ، والاعتداء على الآمنين كما ترى صفحة من صفحات الدفاع المجيد عن الوطن المفدى يوم أن عز على الإنجليز أن يتركوا مصر الناهضة آمنة تستكمل أسباب الرقى والمنعة ، فحاولوا محاولتهم ، وجهزوا أسطولهم ، ونقلوا عليه جيوشهم التى نزلت فى ثغر الإسكندرية فى اليوم التاسع والعشرين من شهر مارس سنة ١٨٠٧ ، واتجهت نحو رشيد بغية احتلال البلاد ، ولم تكن مصر الفتية فى حرب مع إنجلترا ، وإنما هو جشع الاستعمار يبرر الاعتداء باسم الإنسانية ، ويفوض دعائم السلام باسم التعمير والمدنية !

ترى ؟ هل ترجع الأمة البصر ، فتذكر كيف استعد أهالى رشيد ورجال حاميتها الصناديد لصد الأعداء ، فأجمعوا كلمتهم ، وأعدوا عدتهم ، ودبروا خطتهم ، وما دارت رحى القتال ، وطلع يوم ٣١ من مارس حتى ظهر الحق على الباطل ، وكان النصر حليف المصريين الأبطال الذين ألقوا إلى البحر بجيش العدوان ؟

وهكذا حبطت محاولة المستعمر ، وباء بالخيبة والفشل ، واهتزت مصر لهذا النصر وتلك المفخرة القومية .

ترى ؟ هل تفيق الأمة من حمى التقاطع ، وتصحو من غفوتها على صوت أرواح الأبطال الأمجاد الذين سطروا بغالى دمائهم صفحة من نور وفخار فى صون حرمة الوطن والدفاع عن تراث الغابرين ؟

ترى ؟ هل تسكن ثورة الحزبية البغيضة الفتاكة ، وتتهادن الشيع والأحزاب ، فتعف الألسن عن التجريح ، والأقلام عن الإسفاف والنفوس عن تقطيع الأوصال وتمزيق الوحدة ، ويلقى القادة الأجلاء بسلاحهم المسموم المسدد إلى قلب الوطن المنكوب ، ويستلهم الكل من ذكرى ٣١ مارس وحى العزة والإباء والتضامن والإيمان

والتضحية وحسن التدبير؟

ترى ؟ هل تذكر الأمة ذلك وتوازن بين ماضيها الحافل بالعظمة والحيوية والقوة التى سادت روح الشعب وبين حاضرها المدموغ بطابع الضعة والانقسام والوهن حتى ضاعت المصلحة العامة وذل الشعب ؟

وأخيراً- ترى ؟ هل تسن الحكومة سنة حميدة ، فتجيب الوحدة القومية إلى رغبتها ، ويخرج الجيش المصرى المحبوب من ثكناته (والجيش عنوان المجد والعزة القومية) بكامل وحداته وعدته يحتفى بالذكرى يحوس خلال الديار يذكرنا بماضى جيشنا العظيم ، ويحيى الشعور الميت ، ويذكى لهيب الوطنية ؟

إن الوحدة القومية لتهيب بطبقات الأمة كافة حكومةً وشعباً لتجيد ذكرى ٣١ من مارس بكل معانى التمجيد بعد أن طوتها أحداث الزمان (إن الذكرى تنفع المؤمنين)[1]

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

١٤٥ شارع عماد الدين القاهرة

١٩٣٨/٣/٣١

---

(١) سورة الذاريات : ٥٥

«أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ
أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِى سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ»(١)

قرآن كريم

مصر بين شقى الرحى

مقدمة

يوم أن أطلقناها صيحة جريئة بريئة ، وناديا بالوحدة القومية منذ سنين ، وطرقنا باب الصحف لنفسح المجال لنشر دعوتنا ، وضنت علينا بتلك الخدمة العامة مما اضطرنا إلى نشر الدعوة عن طريق النشرات بعد أن مهدنا لها زمناً وصادفت قبولاً عند أخصائنا – كبر على بعضٍ ما ندعوهم إليه ، وأوجس بعض منا خيفة ، وظنوا بنا ظن السوء ؛ فنشرت الأهرام فى عددها رقم ١٧٩٧٣ بتاريخ ١٩ ديسمبر سنة ١٩٣٤ تحت عنوان النشرات السرية واهتمام إدارة الأمن العام بها ما يأتى :

« نشطت بعض الأيدى الخفية فى الأيام الأخيرة إلى طبع نشرات سرية وتوزيعها عن طريق البريد على بعض الجهات كالمدارس والصحف ، وقد وقعت نشرتان من هذا النوع فى يد البوليس منذ يومين ؛ فأرسلها إلى حضرة صاحب العزة بدوى خليفة بك مدير الأمن العام . »

« وقد أرسلت وزارة المعارف إلى مدير الأمن العام نشرة سرية تلقتها من إحدى المدارس ظهر أنها نسخة من إحدى النشرتين اللتين وقعتا فى يد البوليس » .

« وقد عنى مدير الأمن العام بهذا الموضوع ، ودرس ما فى النشرتين فظهر أن ما جاء فيهما يعد تعبيراً شديداً عن بعض الأمانى القومية من استقلال البلاد وعدم التفريط فى حقوقها ، وليس فى هاتين النشرتين ما يعد نشره خطراً شديداً على الأمن العام وإن كان فيه بعض استفزاز للعواطف وتحريك للشعور ! »

---

(١) سورة الملك / ٢٢ .

« وعنوان النشرتين واحد وهو مصر بين شق الرحى » .

« أما ما جاء تحت العنوان فى كل نشرة منهما فمختلف الأسلوب ، ولكنه متفق المعانى . وتاريخ أولاهما (٤ نوفمبر الماضى) وأخراهما (٢٦ نوفمبر) »

« وقد حذر كاتب النشرتين الأمة من الانقياد لرأى الإنجليز وأشار إلى تدخل الإنجليز فى الشئون القومية وأهاب الكاتب بكل فئات الأمة لتتعاون على إخراج البلاد من الهوة التى تردت فيها ، وانتقد المطالبة بدستور سنة ١٩٢٣ ؛ لأنه على سعته الظاهرة يخرج السودان من حدود المملكة المصرية ولأنه ليس من وضع جمعية وطنية .

« هذه فحوى النشرتين ، ولكن إدارة الأمن العام علمت أن هناك نشرة أخرى . . . . . إلخ إلخ » .

وعادت الأهرام فنشرت فى عددها رقم ١٧٩٧٩ بتاريخ ٢٥ من ديسمبر سنة ١٩٣٤ تحت عنوان (النشرات السرية) ما يأتى .

« أشرنا منذ أيام إلى النشرات السرية التى توزع على المدارس والصحف والجهات الأخرى وجئنا على خلاصة نشرتين منها معنونتين بعنوان مصر بين شق الرحى وقد جاء فيما نشرناه أن إدارة الأمن العام لم ترفيما نشر فى هاتين النشرتين شيئاً أكثر من شدة فى اللهجة غير أن هناك نشرة ثالثة قيل عنها لإرادة الأمن العام : إنها تشتمل على تحريض ضد الأجانب ؛ ولم تكن الإدارة قد وقفت على نص هاته النشرة ؛ ولم تستطع الزميلة التى أشارت إليها أن تقدم صورة منها ، فعد أمر هذه النشرة كأنه لم يكن » .

« وقد تلقينا فى بريد الأهرام أمس بياناً موقعاً بالعبارة الآتية :

« الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل ص ب ١٦٤٤ مصر وقد جاء فى البيان ذكر ما نشرته الأهرام قبلا بشأن النشرات السرية ، ولاحظ كاتبه أنه ليس من العدل نظم النشرات التى توزعها الوحدة القومية مع النشرات التى تدعو إلى الفتنة فى سلك واحد . مما يوهم أن الوحدة القومية تعمل فى الظلام .

ثم ختم البيان بما يأتى . . . وسنوالى بإذن الله إسماع صوتنا فى المناسبات ، ونرجو من الصحف أن تُفْسح صدرها لما ننشره تنفيساً عن صدورنا وإراحة لضميرنا وتبرئة لذمتنا أمام الله والوطن والتاريخ » .

ونشرت جريدة المقطم بعددها المؤرخ ٢٨ من يناير سنة ١٩٣٥ عبارة عن (الوحدة القومية) بمناسبة توزيع نشرتها الرابعة مصر بين شق الرحى بعنوانٍ وصيغة يوهمان القارئ أن النشرة سرية ، وأن الوحدة تعمل فى الظلام .

ثم عادت المقطم ، فنشرت فى عدد الأربعاء ٢٠ من يناير سنة ١٩٣٥ ما وصلها من الوحدة بهذه المناسبة تحت عنوان (فى نشرات الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل ونصه :

« لا شك فى أن روح الحزبية قد ضرَّ البلاد والأفراد مما دفع الوحدة إلى التفكير فى نشر دعوتها الحارة لضم الصفوف ونبذ الشقاق وتوحيد الجهود كى تتحرر الأمة مما تردت فيه من استبعاد اجتماعى واقتصادى وسياسى ، ولتصل بقضيتها » « الوطنية إلى بر السلام . فكتبت أولى نشراتها وطرقت باب الصحف فأبت هذه أن تنشرها . ولما كانت الوحدة جادة فى إسماع دعوتها للشعب لتبرئة ذمتها أمام الله

والوطن واتبعت سبيل النشرات ؛ فأشارت الأهرام فى عددها ١٥ من ديسمبر إلى النشرتين الأولى والثانية وأتت على ملخص ما جاء فيهما مما لا يمس عمل الوحدة فى شىء إلا أنها خلطت بين عمل الوحدة ونشرات سرية أخرى قالت : إنها تحض على الفتنة وكراهية النزلاء . وعتبنا على الأهرام خلطها فنشرت ما تيسر من ردنا فى عدد ٢٥ من ديسمبر الماضى مما رد الحق إلى نصابه . »

« وبالأمس نشرت جريدة المقطم الغراء فى صفحة الأخبار المحلية خبراً عن النشرة الرابعة للوحدة القومية بصيغة وعنوان يوهمان القارئ أن الوحدة تعمل فى الظلام أو أنها تأتى ما لا يجيزه القانون . ولا يسعنا وقد تكرر الحادث من جريدتين هما أكثر الصحف ذيوعاً وانتشاراً إلا أن نعود ونطلب بلطف أن تتحرى الصحافة الدقة فيما تنشر ؛ لئلا يختلط الأمر على القراء ويظنوا بالوحدة الظنون ! »

ونشرت جريدة البصير بالإسكندرية فى ٢٩ من يناير سنة ١٩٣٥ لمراسلها بالقاهرة تحت عنوان (نشرات ضد الوفد توزع بالمدارس) ما يأتى :

« وجدت فى كثير من المدارس الأميرية وغيرها نشرات مطبوعة عنوانها (مصر بين شقى الرحى) يطعن فيها كاتبوها على المؤتمر الوفدى الذى عقد فى يومى ٨ و ٩ من الجارى فى مدينة رمسيس ويصرحون بأن الوفديين أصبحوا أعواناً للإنجليز وأنهم باعوهم الديار بالحكم ! ويحضون الشعب المصرى على مناهضة الوفد وزعمائه ! وسنتكلم فى أقرب وقت بشكل أتم عن هذه النشرات وعن العوامل الخفية التى بعثتها .

ثم عادت البصير ، ونشرت فى عدد ٣١ من يناير لمراسلها بالقاهرة تحت عنوان المنشورات الخاصة على كراهية الوفد ما يأتى :

« اتصل بنا من مصدر ثقة أن المنشورات التى أشرنا إليها فى رسالتنا منذ يومين والتى وزعت فى كثير من المدارس الأميرية وغيرها طاعنة فى الوفد المصرى ، وخاصة على نبذه بدعوى أنه استسلم للإنجليز ورضى بمطالبهم ، وباع لهم البلاد — نقول : إن هذه المنشورات لم تزل توزع بطرق خفية فى كثير من أنحاء القطر ، وهى تدل دلالة واضحة على ما يخالج القلوب من قلق فى بعض الفئات ومن نفاد صبرها فى غيرها ومن عدم الرضا بقرارات الوفد » ؛ لأنها خلت من ذكر السودان وذكر الجلاء وغير ذلك من الأمور التى كان الوفد حريصاً على المطالبة بها بإصرار ، وعلى التمسك بها تماسكاً جعلها من المبادئ (الأساسية) للوفد .

« فالحالة كما أتينا فى رسائلنا حرجة والأعصاب متوترة والعواطف جائشة ، ولا يدرى أحد بما يأتى به الغد من الطوارئ التى إن أرضت أناساً أغضبت « آخرين » .

* * *

وعلم الله أننا لم نرد إلا الإصلاح ما استطعنا يوم غمرتنا فتن كقطع الليل المظلم .

والوحدة القومية لم تنطق عن هوى ، وهى صادقة العزم على غزو القلوب المقفلة حتى تصبح فكرتها عقيدة الجميع ، فتطمئن على تحقيق رسالتها التى عاهدت عليها الله من الرجوع بالأمة المصرية إلى سابق إيمانها الثابت بحقها فى الاستقلال الكامل لوادى النيل ، والعمل فى صمت وقوة على جعل ذلك الاستقلال الكامل حقيقة واقعة : فإما إلى الصدر بقوة وحزم ، وإما إلى القبر بشرف وفخار !

والوحدة القومية تقدم إلى القارئ الكريم مطبوعها الثانى عشر من سلسلة نشراتها ورسالاتها «مصر بين شق الرحى» – فى عبارة خالية من تنميق اللفظ وتزويق الأسلوب – نبذة موجزة تاريخية لما كنا عليه ولما صرنا إليه .

والوحدة بذلك تلقى شعاعاً من نور على الحقيقة التى تأبى السياسة إلا أن تخفيها عن أعين النشء ليجهلوها ، أو تقدمها لهم باطلة مشوهة ، ليفضلوا بها .

والأمة متى فهمت الحقيقة ، واتبعت الفهم الأيمان تمكنت بإيمانها الرواسى الشامخات ، ووصلت إلى أوج العظمة والمجد !

«إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً»[1]

---

(١) سورة المزمل / ١٩ .

المجد الغابر

لعلك تدرك :

١ – أن وطنك جنة الدنيا بخصب تربته وطيب جوه ووافر ثروته وحسن موقعه الجغرافى ، وكان دائماً لهذه المزايا الطبيعية مرمى أنظار الفاتحين ومحل تضحياتهم وتنافسهم .

٢ – وأن أمتك تكونت من منذ أكثر من ستين قرناً ، وأن التاريخ لم يعرف أمة تكونت قبلها ، وأنها ظلت مستقلة نحو الخمسين قرناً ، وأنها لم تكن عبئاً على الإنسانية أو مطية للغالبين كما يصورها دعاة اليأس والقنوط ؛ بل إنها كغيرها من الأمم لم تسلم فى بعض العهود من اعتداء الأجنبى على استقلالها ، فأغار عليها الهيكسوس فالفرس فالإغريق مع الإسكندر المقدونى فالرومان فالعرب فالترك وهى تغالب وتجالد فلم تفن فيهم ، بل احتفظت بقوميتها ، وبرهنت على حيويتها وقوة عنصرها إلى أن عادت واستقلت فى عهد محمد على الكبير !

٣ – وأن ما يتمتع به الأجانب فى بلادك من امتيازات ليس نتيجة قانون أو معاهدة ؛ وإنما هى منح من سلاطين تركيا للأجانب النازحين إلى مصر ترغيباً لهم فى ربط الصلات بها وتبادل المنفعة معها .

وأن نظام الامتيازات نظام عتيق بال جارح للكرامة والعزة القومية ، هادم للاستقلال ، لم يبق قائماً إلا فى مصر وقد حق زواله بزوال علة وجوده من عهد بعيد !

٤ – وأنك تنتسب إلى شعب مجد عامل كانت له مدنية لا تزال موضع إعجاب الأمم ، نقل عنها الفرس والرومان واليونان مدنيتهم التى هى مصدر مدنية أوربا ؛ وأن لك ماضياً كله فخار ومجد وعزة .

٥ – وأن فتوحك امتدت إلى العراق والشام والأناضول والسودان حتى الدرجة الرابعة من خطوط العرض الشمالية ، وأن جيشك الباسل حارب الروسيا فى القرم جنباً إلى جنب مع جيوش تركيا سنة ١٨٥٣ – ١٨٥٦ ، وحارب فى الوقت نفسه بالمكسيك جنباً إلى جنب مع جيوش فرنسا ، كان مثال النظام والبسالة والإقدام .

٦ – وأن حدود وطنك الطبيعية هى منابع النيل جنوباً والبحر الأبيض شمالاً والبحر الأحمر شرقاً وصحراء لوبيا وطرابلس غرباً[1]

وأن زيلع ومصوع وهرر وإرتيريه والسودان وأعالى النيل مناطق مصرية اختلط بتربتها دم المصرى الفاتح ، وعمرتها اليد المصرية العاملة ، ورفرف على ربوعها العلم المصرى الخفاق ، وليس ثمة مستند أو فرمان أودكريتو أو معاهدة دولية تثبت نزولَ مصر عن حقوقها (الملكية والسيادة) عن تلك الأمصار .

٧ – وأن إنجلترا ودول الغرب اقتطفت بالاتفاق بينها تلك المناطق من جسم الوطن غدراً باسم الإنسانية ، واقتسمتها ظلماً لقمة سائغة باسم المدنية . تنفيذاً لتزيق وحدتك وإضعافك ، والتحكم فى مياهك . وإشباع نهمها الاستعمارى ، وحصرك فى تلك البقية الباقية من وادى النيل .

وأن التاريخ يحفظ فيما يحفظ بين دفتيه اتفاقيات بين تلك الدول تضمن لمصر حقوقها (الملكية والسيادة) فى السودان ، وتنص صراحة على أن احتلال الأقاليم السودانية المصرية بجنود تلك الدول لا يغير شيئاً منها بل يوقف العمل بتلك الحقوق حتى تصبح الحكومة المصرية فى حالة تسمح لها بإدارة تلك المقاطعات البعيدة .

(١) راجع خريطة مصر فى عهد إسماعيل .

٨ – وأن العلم المصرى كان مرفوعاً على الأساطيل المصرية الحربية والتجارية فى البحرين الأبيض والأحمر وأن أسطولك الحربى كان من القوة بحيث تآمرت عليه الدول الأوربية ، فدمرته بأساطيلها مجتمعة فى موقعه نافارين !

٩ – وأن العلوم والصناعة والتجارة والزراعة كلها ازدهرت فى بلادك يوم أن كانت الجهالة والفوضى تعم بلاداً هى اليوم فى مقام الصدارة من العالم !

١٠ – وأنك قدمت للإنسانية أكبر خدمة بما ضحيته من مال وما بذلته من مجهود جبار فى سبيل إنشاء قناة السويس برغم ما كانت تقيمه إنجلترا وقتئذ من صعوبات وعراقيل ! وأن إنجلترا نفسها جعلت من القناة بعدئذ علة شقائك وأصل بلائك !

قبل الاحتلال

ولعلك تدرك :

١ – أن إنجلترا دولة عريقة فى الاستعمار قديرة فى الختل والخداع .

٢ – وأن إنجلترا كانت تتزاحم وفرنسا على امتلاك وادى النيل منذ أكثر من مائة وثلاثين عاماً .

٣ – وأن إنجلترا كانت تطمع فى إقامة إمبراطورية أفريقية واسعة الأطراف وتمتد من مدينة الكاب إلى مصر على أن يكون امتلاكها مصر امتلاكاً تامًّا هو نقطة الارتكاز فى تحقيق ذلك المشروع الخطير !

٤ – وأن إنجلترا حاولت أن تجرب حظها فى الاحتلال العسكرى يوم أن سيرت جيوشها إلى رشيد عام ١٨٠٧ ، وكانت مصر موحدة الكلمة عزيزة الجانب ، فرمت بجيوش المغيرين إلى البحر فى ٣١ من مارس من ذلك العام ، وأفسدت على إنجلترا محاولتها !

٥ – وأن إنجلترا – هى الحريصة على انتهاز الفرص الدائبة السعى لتنفيذ غايتها – تدخلت فى شئون مصر المالية بحجة الارتباك المالى ، وطلبت من الحكومة المصرية تعيين مراقب إنجليزى وآخر فرنسى ليكوّنا معاً المراقبة الثنائية ، فقبلت الحكومة وصدر بذلك أمر عال فى نوفمبر سنة ١٨٧٩ .

٦ – وأن إنجلترا اتخذت من مصر مسرحاً لدسائسها ، ودبرت مذبحة الإسكندرية فى يونية سنة ١٨٨٢ ، ثم اعتدت على حصون الإسكندرية فدكتها بمدافع أسطولها فى ١١ من يوليو من السنة نفسها وفى الوقت الذى كان مؤتمر الدول العظمى (فرنسا ، وألمانيا ، والنمسا والمجر ، وإنجلترا ، وإيطاليا ، وروسيا) مجتمعاً بالآستانة لحل المشكلات المصرية طبقاً للفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية ، وأنها أزهقت أرواح الآمنين من المصريين ، ولم يكونوا معها فى حرب ، ثم أمعنت فى الإجرام والتعدى حتى دخلت جيوشها عاصمة الديار فى ١٤ سبتمبر ١٨٨٢ بعد موقعة التل الكبير ، وبذا أعلنت احتلال البلاد !

٧ – وأن إنجلترا فعلت فعلتها بحجة حماية العرش والمحافظة على الأمن فى البلاد ؛ كما أنها صرحت فى مجلس نوابها على لسان المستر غلادستون رئيس وزارتها فى ٢٤ من يوليو سنة ١٨٨٢ بأنها تفوض لدول أوربا التسوية النهائية للمسألة المصرية ، ووعدت على لسان ملكتها فكتوريا ورجالها المسئولين ووزرائها ونوابها بأن ليس لها مأرب من

احتلال وادى النيل ، وليس لها فيه مصلحة خاصة ، وبأن جلاء جيوشها عن الوادى لابد واقع دون إبطاء ! وأن لها فى ذلك أكثر من ستين وعداً حنثت فيها جميعاً ، وأنها كانت تجاهر باحترام الفرمانات السلطانية والمعاهدات الدولية ، بل إنها كانت تعهدت فى عقد ترابيا الدولى الشهير (قبل الاحتلال بأيام) بأنها لا تسعى لامتلاك أى جزء من وادى النيل أو أى شىء من مرافقه ولا للحصول لنفسها على مركز ممتاز فيه .

٨ – وأن مسألة تحديد يوم الجلاء كانت موضوع البحث فى عدة ظروف حيث بحثت بمناسبة إلغاء المراقبة الثنائية ، وبمناسبة تعديل قانون التصفية ، وبمناسبة الاتفاق على معاهدة قناة السويس ، وفى مفاوضات دروماندوولف التى حددت فيها إنجلترا وقتاً قريباً لجلائها والتى لم يسبب فشلها إلا رغبة إنجلترا فى الاحتفاظ بحق الرجوع إلى مصر إذا طرأت فيها بعد الجلاء حوادث تهدد النظام فى الداخل أو تعرضها لخطر عدو من الخارج (وإنجلترا الداهية لا يصعب عليها خلق الطوارئ ، لتبرر تدخلها من جديد بصفة من له حق التدخل ، ويكون وجودها عندئذ ذا صفة شرعية ، وهو كل ما نرمى إليه !)

٩ – وأن إنجلترا كانت تدخل إلى مفاوضات الجلاء – سواء كانت مع الدول أو مع الباب العالى – على مبدأ التسليم بوجوب الجلاء ، ولم تكن تدعى أن احتلالها حق مشروع أو أنه أكسبها فى وادى النيل أى حق أو أى امتياز ؛ كما أن فشل تلك المفاوضات لم يكسبها أى حق .

١٠ – وأن إنجلترا بقيت فى مصر بدون سند قانونى وأن جلاءها عنها أمر يوجبه القانون الدولى ، ويحتمه الشرف الوطنى ، ويدعو إليه السلم العام .

بعد الاحتلال

ولعلك تدرك أيضاً :

١ – أن إنجلترا أول ما فعلت بعد الاحتلال أن جعلت من نفسها الوصى الناصح الواجب الاتباع ، وأنزلت مصر منها منزلة القاصر ، عليها الإصغاء إلى مشوراتها (وفى عرف السياسة أوامرها) فاستبدت بالسلطان ، ومركزت السلطة الفعلية فى عميدها[1] فى مصر وطوت نفوذ الدول الأخرى ، وألغت المراقبة الثنائية واستبدلت بها مستشاراً مالياً إنجليزياً له الأمر والنهى فى المالية المصرية وكان له حق حضور جلسات مجلس الوزراء وألغت مجلس النواب المصرى الذى كان أنشئ فى عهد إسماعيل ، وكان تام السلطة فى عهد توفيق ، واجتمع لأول مرة فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨١ .

٢ – وأن إنجلترا سلكت فى أوامرها سبيل اللين طالما رأت روح التساهل والامتثال من الحكومة المصرية ، ولم تضطر للتكشير عن نابها إلا إذا لمست المعارضة الشديدة ؛ كما حصل مع شريف باشا رئيس الوزارة المصرية يوم أن رفض بإباء إلحاح إنجلترا فى طلب إخلاء السودان ، وآثر الاستقالة على التفريط فى حقوق الوطن !

٣ – وأن إنجلترا مازالت على سياستها هذه إلى الآن برغم استقلال مصر المزيف الذى منح لها بموجب تصريح

(١) راجع تلغراف أرل جرانفيل وزير خارجية إنجلترا (يناير عام ١٨٨٤) .

(٢٨ فبراير) سنة ١٩٣٢ والذى احتفظت فيه إنجلترا بصفة مطلقة بتحفظات أربعة هدمت الاستقلال من أساسه [١] (وليس بعيداً منا تعنت إنجلترا واستسلام الحكومة المصرية فى حذف لفظ «السودان» من لقب جلالة ملك مصر والسودان وحذف النص الخاص بالسودان نفسه من مواد الدستور المصرى) — برغم معاهدة الصداقة والتحالف سنة ١٩٣٦ التى صححت مركز إنجلترا فى البلاد ، وثبتت برضاك الاحتلال باسم الاستقلال !

وأن إنجلترا حاولت باللورد دوفرين سنة ١٨٨٣ أن تشترى من الباب العالى الجزية التى كان يأخذها من مصر ؛ لتحل محل الدولة العلية فى هذا المظهر من مظاهر التبعية ؛ ولما لم تفلح فى مشترى الجزية حاولت أن تقنع الباب العالى ليعلن استقلال مصر التام رغبة منها فى التخلص من قيود المعاهدات التى تعهدت هى فيها مع باقى الدول باحترام أملاك الدولة العلية ، ولتهدم تلك الحواجز القانونية التى تقف فى سبيل محاولاتها احتلال مصر ؛ فلم تفلح فى ذلك أيضاً !

٤ — وأن إنجلترا اتخذت من ثورة المهدى فى عهد رؤوف باشا حاكم السودان العام سبيلاً إلى تحقيق جزء من حلمها فى إقامة إمبراطوريتها الأفريقية ، فتدخلت فى شئون السودان بفصلها العام وكان السودان إلى ذلك الحين جزءاً متمماً لمصر غير قابل للانفصال عنها) ، وأرغمت الحكومة المصرية على استدعاء عبد القادر باشا حلمى القائد العام لجيش السودان برغم كبحه جماح الثوار وانتصاره عليهم بما كان لديه من قوة محلية واستبدل به سليمان نيازى باشا اسماً والجنرال هكس باشا الإنجليزى فعلاً ؛ كما طردت أمين باشا من مديرية خط الاستواء ، واحتلت أوغندا وأونيورو .

٥ — وأن إنجلترا أضاعت السودان بتمسكها بتعيين الجنرال هكس باشا قائداً عاماً لجيش السودان وتفويضه سلطة التصرف وهو الذى لجهله حالة البلاد وطبيعة أرضها ولإهماله خطة سلفه المصرى الحكيمة فى قهر الثوار قاد الجيش المصرى إلى هلاك محقق بالعطش ، وساقه إلى صحارى كردفان ، فنزلت به الكارثة ، وباد عن آخره بعد أن لاقى أشد الآلام ، فضاع السودان منا على يد إنجلترا لتغتصبه بعد ذلك من أيدينا ، وتسيطر على حياة مصر !

٦ — وأن إنجلترا اتخذت من حملة مارشان واحتلال الفرنسيين لفاشودة سبيلاً لدفع الدوائر الرسمية بمصر لإعداد حملة لاستعادة السودان ، وأنها احتجت على عمل فرنسا بأنه احتلال لأراض مصرية إن تركتها مصر تحت تأثير ظروف طارئة فهى مصرية وليس لأى دولة أن تفكر فى الاستيلاء عليها ، بل صممت على رفع العلم المصرى فوق حصون فاشودة القديمة حيث حيته الجنود البريطانية والمصرية هناك (وكذلك لا تعرف السياسة الإنجليزية الشرف إلا حيث تكون المصلحة) .

٧ — وأن إنجلترا اتخذت من ضعف الوزارة المصرية وامتثالها لأوامرها فرصة ذهبية ، فعرضت عليها قبول اتفاقية ١٩ من يناير سنة ١٨٩٩ الباطلة (عقد الاشتراك بحق فتح السودان بين مصر وإنجلترا) مع أن استعادة السودان بدئ وتم باسم مصر وحدها ومن أجلها ، وكانت إنجلترا قبل ذلك التاريخ تعترف فى كل الأوقات بحقوق مصر الكاملة فى السودان (الملكية والسيادة) .

(ا) تأمين مواصلات الإمبراطورية البريطانية فى مصر .

(ب) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى بالذات أو (بالواسطة) .

(جـ) حماية المصالح الأجنبية فى مصر وحماية الأقليات .

(د) السودان .

٨ – وأن إنجلترا بعد أن مكنت لطيتها فى الديار جردتك من أسلحة الحياة ، وسلبتك نعمها معنوية كانت أو مادية ، فأفسدت كل ما غرس أجدادك من خلق كريم وتكوين سليم ، وعطلت كل ما بنوا من مصانع ، وأسسوا من معاهد ، وعبثت بالتعليم والجيش وبالقوانين والإدارة ، بل بكل شىء حتى تركتك فى عداد ميت الأحياء ، وحاربتك بأمضى سلاح ، فاتبعت سياسة (فرق تسد) ، واتخذت من بين إخوانك بطانة عليك وعلى وطنك !

٩ – وأن إنجلترا وقد حسبت أنها قضت على روح الوطنية فيك استيقظت من حلمها الليلى على صرخة الوطنية الحق تدوى فى الآفاق فى جرأة وصراحة بطلب الجلاء على لسان المغفور له مصطفى كامل باشا ، إذ نفخ فى الأمة من روحه ، فألهب الشعور ، وأيقظ الهمم ، وأحيا الآمال .

١٠ – وأن إنجلترا إذ تخشى صيحة الحق حسبت لها حسابها وحاربتها بكل قواها ، وحاولت القضاء عليها فى مهدها تارة بالوقيعة بين الجالس على العرش وبين رافعى لواء الوطنية المطالبين بالجلاء ، وتارة بتخويفك نغمة الدين ، وتارة بتقسيم الأمة شيعا وأحزاباً . إلا أن يقظة الأمة وقوة الإيمان وثبات العقيدة قضى على كل محاولاتها حتى وقعت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وكان الحاكم الشرعى للبلاد (سمو الخديو عباس الثانى) خارج القطر بالآستانة ، فما نعت بشدة فى عودته إلى الديار ، ونفذت إرادتها وأعلنت الحماية قسرا فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وخلعت الخديو (عباس) فى ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٤ وصادرت أملاكه وولت مكانه المرحوم البرنس (حسين كامل باشا) ولقبته بلقب سلطان ، ونفذت كل ذلك الافتئات بدعوى أنه ضرورة حربية .

بين سنتى ١٩١٤ و ١٩٣٦

ولو كنت تدرك :

١ – أن إنجلترا دخلت الحرب الكبرى تبكى وتستبكى على الحريا المسلوبة والإنسانية المعذبة والحرمات المنتهكة والعهود المنقوضة ، وترمى لألمان بالوحشية ، وتنادى بوجوب صد اعتدائهم .

٢ – وأن إنجلترا بتلك الأغنية المعسولة غررت بالشعوب المستضعفة فى الشرق ، وأسرفت فى وعودها لها بالاعتراف بالاستقلال ، فأمنت جانبها ، بل ضمنت مساعدتها وجذبتها إليها تحارب فى صفها ضد الأتراك والألمان .

٣ – وأن إنجلترا حكمتك طول مدة الحرب بالحديد والنار ، فلا سلطان إلا سلطانها العسكرى ، ولا قانون إلا الأحكام العرفية . فألجمت الأفواه وحطمت الأقلام ، وصادرت الجرائد ، وأغلقت الأندية ، ونفت واعتقلت رجالاً ممن تخشى بأسهم ، وبثت جواسيسها فى كل ناحية ، وفرضت رقابتها على كل شىء ، ووضعت يدها على كل مرافق القطر ، وحولته إلى ميدان قتال ، واستولت على كل ما يملك الفلاح من مال وغلال وجمعت ثروة الوطن جميعاً ورصدتها لجيوشها فى ميادين القتال .

٤ – وأن إنجلترا استعانت بفرق العمال المصريين الذين جمعت منهم السلطة العسكرية حوالى المليون ونصف المليون وحشدتهم حشداً ، فمدوا سكة طور سيناء الحديدية وحفروا الخنادق فى شبه جزيرة غاليبولى بالدردنيل ، واستخدمتهم فى ميدان القتال الغربى بفرنسا ، فكان جلدهم ومهارتهم وحسن بلائهم مضرب الأمثال وموضع الإعجاب .

وأنها استعانت بالجيش المصرى فى صد حملة الأتراك على قناة السويس وصد حملة السنوسيين على حدود مصر

الغربية ، وتركت له أمر الدفاع عن القطر وحراسة الحدود ، وأدخلتنا معها قهراً فى زمرة المحاربين ولم يكن لنا فى تلك الحرب ناقة ولا جمل !

٥ – وأن إنجلترا لما انتهت الحرب برجحان كفتها وكفة حلفائها عادت إلى طبيعتها ، فتناست وعودها المعسولة ، وتجاهلت تلك الحريات المسلوبة والإنسانية المعذبة التى ملأت الدنيا صراخاً من أجلها ، وادعت أنها ما دخلت الحرب إلا للدفاع عنها وصيانتها ، وجحدت ما قدمت الشعوب (ومنها مصر) فى هذا السبيل من أرواح وأموال وأقوات ، وصمت آذانها عن سماع كل صوت مرفوع بقاضيها الثمن .

٦ – وأن إنجلترا هزأت بالحق ، وقاومتك بالقوة المسلحة يوم أن غضبت الأمة للحق غضبتها المشهورة ، وبرهنت على حيويتها وعلى روح الوطنية الكامنة فى نفوس أبنائها والتى حجبتها حيناً ولم تكن لتميتها محن سنىّ الحرب الكبرى ، فثأرت على بكرة أبيها سنة ١٩١٩ ، وقدمت بسخاء الأرواح وكل ما تملك ثمناً للاستقلال التام لوادى النيل .

٧ – وأن إنجلترا ارتكبت لإخماد ثورتك أبشع الجرائم وأفظعها مما يندى له جبين الإنسانية ، فتركت جنودها (من إنجليز وأستراليين وهنود) يعيثون فى الأرض فساداً وأحلت لهم النهب والسلب والتقتيل والتعذيب والتشويه وهتك العرض ، ولم تعوزك الدليل على نياتها لك ، فخلفت وراءها بالعزيزية والشوبك والبدرشين وديرمواس وغيرها وغيرها من قرى القطر ومدنه أبشع صورة لأفظع انتقام ، بل أصدق صفحة من رسالة المدنية الغربية .

٨ – وأن إنجلترا – وقد رأت منك روح المقاومة والعناد – وأنت الأعزل إلا من سلاح الاتحاد وقوة الحق ، وخشيت هيبتها من الضياع وعلى نفوذها من الزوال – رأت من الحكمة ولمصلحتها أن تأخذك باللين ، وتستعين عليك بالوقت ، لتكسب الموقف ولتنال بهذا وذاك ما لم تنله بالجبروت وقوة السلاح ، فلوحت (وليتها ما لوحت) بالمفاوضة ولم تيئس من زحزحتك عن موقفك الوطنى الرائع يوم أن أجمعت الأمة على بكرة أبيها على مقاطعة لجنة ملنر التى بعثتها إليك بمهمة بحث أسباب الثورة والاضطراب والنظر فى شكل الدستور الذى يصلح أكثر من سواه وفى إمكان منحك حكماً ذاتياً تحت حماية إنجلترا !

٩ – وأن إنجلترا حولت بكياستها جهاد الأمة ضدها من أجل الاستقلال التام لوادى النيل إلى حرب داخلية من أجل كراسى الحكم وتسليم البضاعة بعد أن سعت سعيها – وبمعونة بطانتها من المصريين الذين تدخرهم دائماً لوقت حاجتها – لإضعاف الإيمان بالحق وكراهية الموت فى سبيله وإطفاء شعلة الوطنية الصادقة وإشاعة روح التردد والهزيمة وتشكيك الأمة فى عقيدتها وقوة جلدها على الكفاح وتفريق الكلمة وتمزيق الوحدة ، حتى أدخلوا فى روع النشء أن المطالبة بالجلاء خيال وأن المطالبين به متطرفون مشاغبون والجهاد من أجله ، عبث ومضيعة وأن ذكر السودان معكر لصفو العلاقات مع الخصوم الشرفاء ، وأن القول بدولية القضية قول هراء ، وأن الخير كل الخير من مسالمة الغاصب والأخذ بنظرية حسن التفاهم ، فجعلوا حق الأمة موضع المساومة ، واعترفوا بأن للإنجليز بمصر مصالح لا يمكن تجاهلها أو التغافل عنها ، فأكسبوا إنجلترا باعترافهم هذا حقًّا لم تجرؤ مطلقاً على الادعاء به من قبل !

وتحول الميدان ، وألقى القادة سلاحهم ، وطغت المصلحة الذاتية على المصلحة العامة ، وتحولت الأمة وراء قادتها عن الغاية ، وكسبت إنجلترا المعركة على طول الخط (وهكذا متى ذهبت الأخلاق وضعف الإيمان فكل شىء إلى البوار !) .

١٠ – وأن إنجلترا (وقد ألقت الطعم ، ولمست تكالب القادة على التقرب منها وشراء ودها بأى ثمن وهى الغاصبة

لحقنا – لم تكابد أى عناء فى تحويل القضية المصرية إلى مسألة خاصة بينها وبين مصر وفى التمسك بما سمح لها به القادة من أن لها بمصر مركزاً ممتازاً ومصالح لا يمكن إغفالها ، واستدرجت بدهائها المفاوضين المصريين إلى المفاوضة على هذا الأساس ، وانتقلت بهم من مفاوضة إلى مفاوضة وهى فى كل مرة تخرج بفوز جديد ولا يزيدنا تهافتنا عليها إلا خساراً وتحزباً وانقساماً ! فمن مفاوضة ملنر سنة ١٩٢٠ ، إلى مفاوضة كرزون سنة ١٩٢١ ، إلى مباحثات اللنبى سنة ١٩٢٢ ، إلى مشروع تشمبرلن سنة ٢٨ ، إلى مفاوضة هندرسون سنتى ٢٩ و ٣٠ ، وأخيراً إلى مفاوضة الزعفران التى انتهت بمعاهدة التحالف والصداقة سنة ١٩٣٦ والتى قيدتك بقيود ثقال ، ووضعتك فى موضع شاذ عجيب : فهى وإن اعترفت لك بالاستقلال – ضمت إلى قاموس السياسة نوعاً جديداً منه لا عهد للعالم به يجمع بين الحماية والاحتلال فعلاً والاستقلال اسماً !

وهى وإن أطلقت يدك فى الشئون الداخلية نوعاً مما يزعم بعض أنه خير كثير – لا يقيم الوطنى الصادق لذلك وزناً البتة بجانب ماكسبته إنجلترا من الخروج بالقضية المصرية عن دوليتها ومن تحررها من قيود المعاهدات ومن حصولها على تصحيح مركزها فى القطر وتثبيت قدم الاحتلال .

ولعل الوقت لا يطول بنا حتى تنطق الحوادث بما يؤيد رأى الوحدة ، ولعلنا نرى بعدئذ من قبلوا المعاهدة ، وروجوا لها بحرارة ، ونعتوها فى زهو وغرور بأنها وثيقة الشرف والاستقلال – يدركون الحقيقة ، فيخففوا من غلوائهم ويصدعوا للحق ، ويكفروا عن خطيئتهم ويقروا بأنها وثيقة الخزى والعار ، بل وثيقة الحماية والاحتلال [1] !

---

(١) صدور – والرسالة تحت الطبع – تصريح لحضرة الدكتور أحمد ماهر زعيم المعارضة بمجلس النواب بجلسة الأربعاء ١٨ مايو سنة ١٩٣٨ بمناسبة الاستجواب الموجه للحكومة بشأن مفاوضات إنجلترا وإيطاليا رأينا أن نثبته هنا لقيمته وخطورته لصدوره من أحد أعضاء المفاوضة والموقعين على المعاهدة ورئيس مجلس النواب السابق الذى أقر المعاهدة .

قال الأستاذ أحمد ماهر فيما قال : «لقد وطدت العزم على أن أصارح بكل ماكان من أمر مفاوضات سنة ١٩٣٦ وما خبرناه فيها . إن المادة الحادية عشر نكبة من نكبات المعاهدة» .

خاتمة

لو كنت تدرك كل ما فات لآمنت معنا :

١ – بأن وطنك لما حباه الله من مزايا طبيعية – كان محط أنظار الفاتحين قديماً ، وموضع تنافس دول الغرب حديثاً ، وكان نهباً لها ، وبأنه منقوص الأطراف !

٢ – وبأنك صنت استقلالك يوم أسست على الأخلاق ، وعنيت بالتربية الوطنية ، وحاربت الجهل والفقر والضعف واستمسكت بالعروة الوثقى ، ولم ترض دون الصدارة مقاماً .

وبأنك ضيعت استقلالك يوم اتبعت الهوى ، وسرت على غير هدى ، وجفوت العلم ، وفرطت فى ثروتك وصحتك ومزقت وحدتك ، وهانت عليك نفسك ، ففرطت فى حقك ، ورضيت بأن تكون من الأمم فى موضع الذنب !

وبأنك أهل للاستقلال التام وبأن استقلال وادى النيل من أهم عوامل السلام العام ، وبأن الاستقلال لا يكون إلا بالجلاء .

٣ – وبأن إنجلترا – وقد انفردت بالغنيمة فهى أصل بلائك ، ووجودها ببلدك علة شقائك !

٤ – وبأن المعاهدات قصاصات ورق وهى سلاح فى يد القوى ضد الضعيف !

٥ – وبأن قضيتك دولية طالما تسلك سبيل المسالمة لحلها .

٦ – وبأن الحق لا يتجزأ ، ومفاوضة الضعيف للقوى مساومة على الحق ، وبأن الحرية تؤخذ قسرًا ، ولا تمنح منحاً .

٧ – وبأن الأوضاع فى مصر مقلوبة ، وبأن الفساد دب فى كل ناحية ، وبأن التحزب جريمة لا تغتفر ، وبأن الدم الحالى ملوث بجرائم الاحتلال ، فهو مهما غلى فى العروق فمرده إلى البرود والفتور ، والبناء على الأوضاع الحالية بناء على شفا جرف هار !

٨ – وبأن الإنسان خلق ليعيش حرًا ، وبأن الأيام يداولها ربك بين الناس ، وبأن قوة المناعة والحيوية الكامنة فى الأمة – وإن قهرتها المحن والكوارث وطال على قهرها الزمن فظهورها حتمى ومرهون بأوان :

(سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) [1] .

٩ – وبأن رسالة الوحدة القومية قضاء على عهد واستقبال لعهد ، هى فصل بين عهدين :

عهد حمل طابع التشكك والتواكل ، والتخاذل والانقسام والخنوع والتفريط والانصراف إلى اللهو والفساد والجدل والدجل السياسى والتطاحن الحزبى وعدم الاستقرار فى كل ناحية .

وعهد سيحمل بإذن الله تعالى طابع الإيمان والاعتداد بالنفس والشعور بالكرامة وتضافر القوى والأمل فى المستقبل والانصراف إلى الجد والعمل المنتج فى صمت وإنكار ذات .

١٠ – وبأن العهد الجديد عهد تضال لتكوين الأمة من جديد على أساس من الأخلاق القويمة ولتسليحها من

(١) سورة الفتح / ٢٣ .

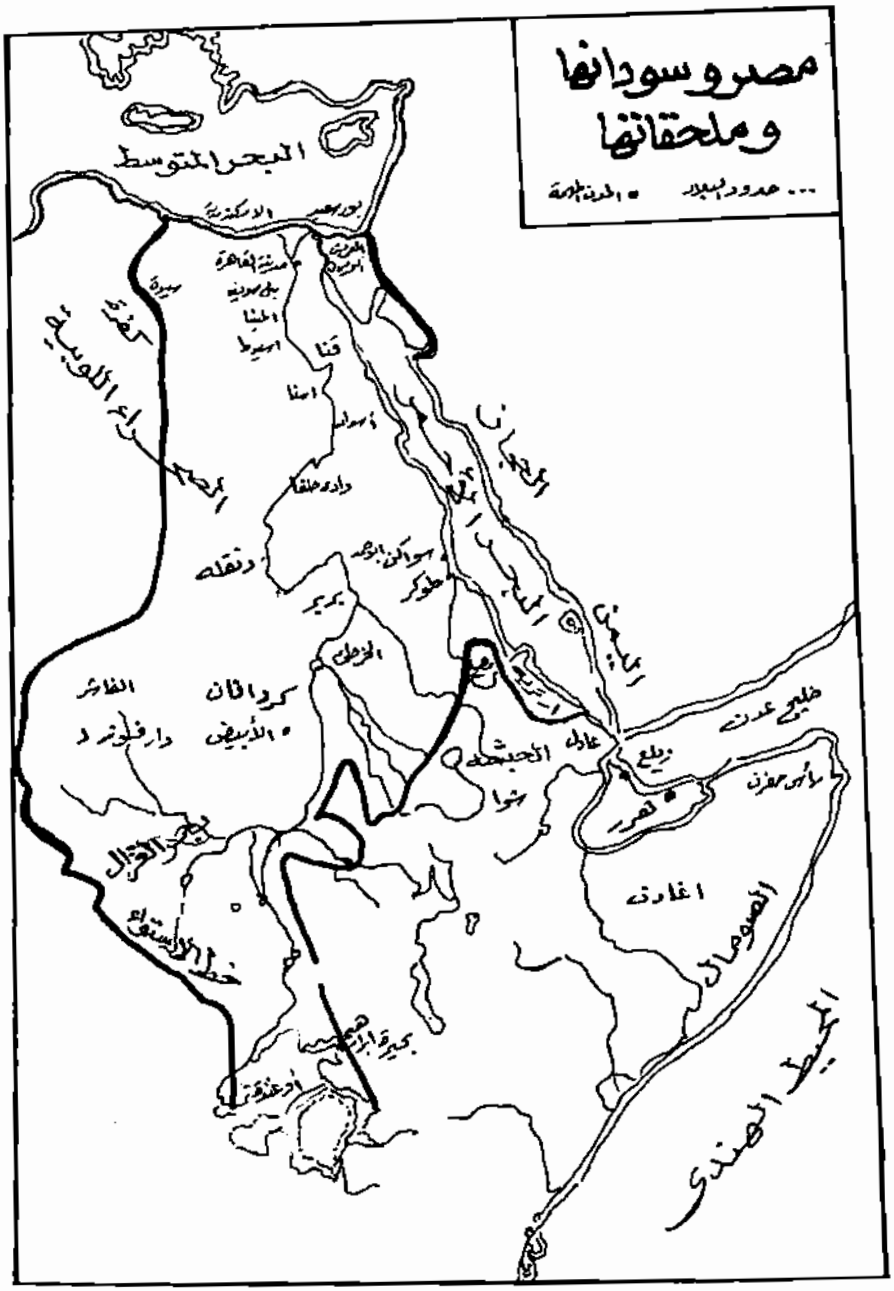

حدود مصر فى عهد اسماعيل من البحر الأبيض المتوسط إلى خط الاستواء

جديد بالإيمان القوى والعلم الغزير والمال الوافر والسلطان العظيم ؛ فهو عهد كفاح يتطلب التجديد فى كل ناحية ، ويتطلب دماً جديداً نقيًّا وروحاً وثابًا فتيًّا لاسترداد حق سُلب ، واستكمال حرية ضاعت ، واستعادة مجد زال : « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال أننى من المسلمين [1]) .

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

القاهرة فى ١٧ من ربيع الأول ١٣٥٧
١٧ من مايو ١٩٣٨

(١) سورة فصلت / ٢٣ .

«قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى
وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ»(١)
قرآن كريم

مصر بين شقى الرحى

الوحدة القومية

فى سنة ١٩٣٠ وفى ركن هادئ بعيادة أحد مشاهير الأطباء جلس إخوان أربعة تجمعهم عقيدة وطنية واحدة « عقيدة الجلاء » يستعرضون حالة وطنهم المنكوب بالغاصب ، وحالة بنيه وقد فرقهم ذلك الغاصب شيعاً وأحزاباً وضرب بعضهم ببعض . وحولهم عن جهادهم ضده . وشغلها حرباً داخلية حتى صرنا وراء الوراء ! .

وبعد عدة جلسات رجعوا فيها إلى حوادث الماضى القريب منه والبعيد (والحوادث نذر) رأوا أن لا مخرج للأمة مما دهاها به الغاصب واستدرجها إليه إلا :

أولاً : بالكشف عن الحقيقة وإعلانها فى جرأة ووضوح .

ثانياً : بالدعوة إلى الإيمان بها .

ثالثا : بالعمل والجهاد على أساسها .

* * *

ولكن ما السبيل إلى ذلك وقد شاع وباء الحزبية وعم ، وفصم عرى وحدة الأمة ، وأضلها السبيل بما لازم ذلك الوباء من دعايات ودجل سياسى وأباطيل سممت العقول . وأفسدت الإدراك . وبما ظهر على مسرح السياسة من أنصار حسن التفاهم مع الغاصب وأبطال المفاوضة فى الحق المغتصب ؟ .

نعم ما السبيل وقد تضافرت قوى الإنجليز وقوى سقيمى العقيدة من أبناء وادى النيل على محاربة حزب الجلاء . والقضاء على الفكرة من طريق تجريح الرجال حتى لقد وصفت الأمة طلاب الجلاء بالخياليين . وصمت آذانها عن استماع النصح والتحذير ؟

(١) سورة القصص من آية (٨٥) .

لم يكن من سبيل إلا إبراز الفكرة السياسية بطابع لا يحمل اسم شخص أو حزب أو هيئة بل الدعوة للفكرة من أجل الفكرة .

فعملت الوحدة القومية – دون أن يكون لها ذلك الظل البغيض ظل الحزبية – على أن ترد الأمة فى لطف بالحكمة والموعظة الحسنة إلى حظيرة الفكرة المثالية . وتجمعها تحت لواء واحد هو لواء الوطنية . لتهدف لهدف واحد هو الجلاء ووحدة وادى النيل . تريد الوحدة القومية بذلك الوصول إلى الوضع الطبيعى لكل أمة تريد أن تناصب العداء سالب حقها ومغتصب حريتها والمعتدى على استقلالها لتستخلص منه ذلك تامًّا غير منقوص .

وإنك لتلمس ذلك فى التسمية الرمزية التى اختارتها لتوقيع نشراتها « الوحدة القومية لاستقلا وادى النيل » وفيما اختارته عنواناً لنشراتها « مصر بين شق الرحى » .

وقد ضربت الوحدة القومية ولله الحمد ، بما أصدرته من نشرات عدة وفى أحاديثها الخاصة – المثل الأعلى فى حرارة الإيمان . والجرأة فى الحق ونبل القصد . ورصانة الفكر . وإنكار الذات . وعفة القلم واللسان . فشقت طريقها قدماً وهكذا يهدى الله الصالحين .

ولولا تحدث بنعمة الله ما خط اليراع ذلك ؛ فالمن أبعد ما يكون عمن وهب نفسه للوطن فداء .

ولما كان المطبوع الثانى عشر من نشرات الوحدة القومية الصادر فى مايو سنة ١٩٣٨ يكاد يبين على الخصوص ما يجب على الأمة فى مثل موقفها الحاضر موضحاً الوضع الصحيح للمسألة المصرية فى عبارة سهلة بعيدة عن التنميق والمغالطة . فقد رئى تعميما للنفع إعادة طبعه فى آخر هذه الرسالة . لعل الذكرى تنفع المؤمنين .

* * *

الإنجليز واحتلال مصر :

وقبل أن نخوض فى مسألة اليوم ونصدر رأينا فيها نرى أن نمهد للموقف بذكر بعض الحقائق الثابتة حتى يكون الرأى – كما هو دأبنا – صائباً بفضل الله .

وقد يكون فيما نكتب اليوم بعض كلام معاد . ولكن ما الحيلة والأمة مازالت تعانى الكثير من آثار تغرير القادة . والزعماء ؟

مصر جنة الله فى أرضه يخطها نهر ميمون البركات وهى على بحرين عظيمين من أهم بحار العالم هما البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، فهى بذلك ملتقى قارات ثلاث ، بل هى باب الشرق الأقصى ومركز الطريق التجارى العام بين الشرق والغرب لتملكها قناة السويس ، وهى فوق كل ذلك المشرفة على الأماكن المقدسة ومفتاح الشرق الأدنى ومصدر كنوز أفريقيا الوسطى .

وكانت مصر لذلك كله مطمع أنظار الطامعين وهى إن تعرضت للعدوان حيناً فقد تمتعت باستقلالها أحقاباً .

ولم يعد خافياً أن إنجلترا رمت باحتلالها مصر إلى هدفين .

أولاً : خلق مركز فعلى لها تبقى البلاد بوضع يدها على مرافقها . وسيطرتها على حكومتها وتوجيه شئونها الداخلية والخارجية – وفق هواها – ولو من رواء ستار .

آخراً : جعل هذا المركز الفعلى شرعيًّا يوماً من الأيام .

هذا ولو أنها ادعت يومئذ أنها لا تضمر لمصر سوءاً وأنها صديقة لمصر ، ولا تريد من احتلالها إلا مساعدة الخديو على نشر لواء الاطمئنان والسكينة فى البلاد عقب الثورة العرابية . وكان لها بعد ذلك أكثر من تسعين وعداً بتوكيد

الجلاء عن وادى النيل : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم »[١] « وعدّهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً »[٢] .

واقترفت إنجلترا من بين ما اقترفت من آثام لتحقيق هدفها الأول :

أولاً : رمت بالجيش المصرى إلى فيافى السودان ، ففنى فيها لقلة وسائل المواصلات والمخابرات ، وأقامت مكانه جيشاً صغيراً تحت قيادة ضباط بريطانيين ، وبذلك ذهبت برمز العزة فى البلاد .

ثانياً : ألغت البرلمان المصرى وأحلت محله مجلس شورى القوانين (الذى دام واحداً وثلاثين سنة) وكانت سلطته صورية ، وأعقبته الجمعية التشريعية فى بدء سنة ١٩١٤ ، وعطلت أعمالها فى يونية سنة ١٩١٤ ، وبذلك قضت على الروح النيابية فى البلاد ، وأفسحت الطريق للمعتمد البريطانى ليتحكم ويحكم وحده لا معقب لحكمه !

ثالثاً : ألغت المراقبة الثنائية على المالية المصرية ، وانفردت بالتصرف فيها وحدها وفق هواها الاستعمارى وبذلك سارت بالأمة فى سبيل الإفقار المادى .

رابعاً : ألغت المدارس العليا ، وأوقفت إرسال البعثات العلمية للخارج ، وعطلت قانون محو الأمية ، وحشرت أبناء التاميز زمراً فى مصالح الحكومة وغيرها ، وأسبغت عليهم المرتبات من مال المصريين ، وبذلك حاربت النشاط العلمى فى البلاد !

* * *

هذا كما حرصت إنجلترا كل الحرص على أن تجعل مركزها الفعلى الباطل فى مصر شرعياً فعملت لذلك بكل ما جبلت عليه من الختل والخداع . وما حذقته من دهاء وحيل سياسية . وكادت جهودها كلها تذهب سدًى لولا أن وقعت الواقعة وكانت الطامة الكبرى بمعاهدة سنة ١٩٣٦ المشئومة .

وكان مما اقترفته « لتحقيق هدفها الثانى من الاحتلال » :

أولا : فى سنة ١٨٨٣ سعت فى مساومة الباب العالى على يد مندوبها لورد دوفرين ليبيع لها الجزية التى كانت تدفعها مصر سنويًّا للدولة العثمانية . ولم تفلح إنجلترا فى مسعاها ليقظة السلطان عبد الحميد الذى رفض العرض رفضاً تامًّا .

ثانياً : فى سنة ١٨٨٥ سعت إنجلترا بسفيرها فى الآستانة لتحريض الباب العالى على إعلانه استقلال مصر التام لتنفرد وحدها بالعمل ، فأدرك الباب العالى الحيلة وأفسدها عليها !

ثالثاً : فى سنتى ١٨٨٦ ، ١٨٨٧ سعت إنجلترا لتجعل لها حقًّا شرعيًّا للتدخل فى أمور مصر ، فلوحت للباب العالى برغبتها فى الجلاء عن وادى النيل . وندبت لمخابرة الباب العالى فى ذلك سير دورومندولف الذى حدد وقتئذ للجلاء ثلاث سنوات (أى سنة ١٨٩٠) على أن يكون لإنجلترا . (وهنا بيت القصيد) الحق فى العودة إلى مصر لتسكين أى فتنة قد تقوم فيها ، فلم يغب عن فكر الباب العالى ما عليه إنجلترا من دهاء وسعة تدبير فى إيقاظ الفتن وإشعال الثورات فأفسد على إنجلترا خطتها ، ورفض مافى ظاهره الرحمة وباطنه من قبله العذاب !

رابعاً : فى سنة ١٩٠٠ وسنة ١٩٠١ عقدت إنجلترا اتفاقات مع ألمانيا وإيطاليا وحكومة الكونغو بشأن حدود السودان المصرى لتحديد مناطق النفوذ فى جهات خط الاستواء ثم ادعت أن قبول تلك الدول الاتفاق معها على تلك الحدود إنما هو بمثابة اعتراف ضمنى منها بمركز إنجلترا الخاص فى مصر .

---

(١) سورة آل عمران / ١٦٧ .

(٢) سورة الإسراء / ٦٤ .

خامساً : فى ٨ من أبريل سنة ١٩٠٤ عقدت إنجلترا مع فرنسا اتفاقية تطلق بموجبها يد فرنسا فى مراكش مقابل عدم تعرض فرنسا لها فى إدارتها فى مصر .

سادساً : فى ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ أعلنت إنجلترا حمايتها على مصر من تلقاء نفسها منتهزة فرصة اندلاع الحرب الكبرى الأولى بين الدول ظنًّا منها أن مصر المستضعفة تلفظ النفس الأخير . إلا أن مصر اليقظة لم تقبل الحماية بحال .

سابعاً : حملت إنجلترا ألمانيا والنمسا فى معاهدتى فرساى وسان جرمان على أن تعترفا بهذه الحماية (ولو أنها تعلم علم اليقين أن لا قيمة فى نظر القانون الدولى لاعتراف الدول بهذه الحماية ما دامت مصر نفسها لم تعترف بها) ، وأرغمت سلطان تركيا فى معاهدة سيفر على النزول عن ممتلكاته للدول المنتصرة . كما أرغمته على النزول لها بالذات عن سيادته على مصر : فقبل السلطان هذا وذاك بناء على نصائح المستضعفين . ولو أن الأمة العثمانية الأبية أنكرت المعاهدة وثارت عليها ومزقتها شر ممزق !

* * *

غير أن كل تلك الحيل والألاعيب ، بل كل ما اتخذته إنجلترا قسراً من إجراءات حتى ذلك الحين – ذهبت سدًى أمام يقظة مصر وحرصها على ألا تمكن الغاصب من جعل مركزه الفعلى الباطل شرعيًّا .

فلا اتفاق السودان الباطل سنة ١٨٩٩ ولا اعترافات الدول الضمنية فى تحديد السودان سنتى ١٩٠٠ و ١٩٠١ . ولا الاتفاق الإنجليزى الفرنسى سنة ١٩٠٤ . ولا إعلان الحماية سنة ١٩١٤ . ولا معاهدات الصلح القسرية (فرساى وسان جرمان وسيفر) مع ألمانيا والنمسا وتركيا . ولا إقرار السلطان العثمانى بنزوله عن سيادته على وادى النيل – لا شىء من هذا كله غيّر من مركز إنجلترا فى مصر فى نظر القانون الدولى . فهى هى الدولة المنتهكة حرمة المعاهدات الدولية ، وهى هى الدولة المعتدية على وادى النيل باحتلاله : ومصر لم تزل الأمة المؤمنة بحقها . الثانية على مبدئها . المجاهدة فى سبيل استرداد حريتها واستقلالها . واقفة للغاصب بالمرصاد . ناظرة للمستقبل بعين الواثق المطمئن إلى نتيجة الجهاد .

* * *

لكن الرواية لم تتم فصولا : فإنجلترا العريقة فى الاستعمار لا تلقى السلاح وهى لم تفرغ بعد كل ما فى جعبتها . وأى سلاح يا ترى ؟ وما آخر سهم فى جعبتها ؟ إنه سهم المفاوضات سددته إلى قلب الأمة ، فأصاب منها مقتلا زحزحها عن موقفها الوطنى الرائع . وحول مجرى جهادها إلى حرب داخلية طاحنة بين الأحزاب .

وذكرت الوحدة فى نشرتها الرابعة « مصر بين شتى الرحى » حول مؤتمر الوفد بتاريخ ١٤ – ١٠ – ١٩٣٥ .

بينا فى الكلمة السابقة متى ولماذا تعقد المؤتمرات عامة كانت أو خاصة – إقراراً وأشرنا للحقيقة – إلى فكرة أن عقد مؤتمر ليست الأولى من نوعها ، وإلى أن المؤتمرات الوطنية السابقة كانت بحق وطنية عامة اسماً ومعنى ، وإلى أن قراراتها كانت مملوءة وطنية صادقة ؛ ذلك بما كانت تسجله من حقوق البلاد والسبيل إلى الحصول عليها . . .

وأخيرا انعقد المؤتمر فحسبنا المؤتمرين يهيمون فيما هاموا به بقضية البلاد ، فيتوجون قرارات المؤتمر بالمطالبة بالجلاء وبتذكير الإنجليز بما قطعوه من عهود وما أقسموا به من أيمان إنهم عن الديار نازحون ! فإذا بهم لاهون عن قضية البلاد بالحنين إلى العودة إلى دستور سنة ١٩٢٣ الأبتر الذى اقتطع السودان ، ولم يكفل حقوق الأمة كاملة ولم يكن من وضع جمعية وطنية !

وحسبناهم يترنمون فيما ترنموا به السودان حياة مصر ، فيقررون بطلان جميع ما جرى من اقتيات القوة الجائرة على حقوقنا فى ذلك القسم من الديار وبأنه جزء لا يتجزأ من الوادى فإذا بهم لاهون عن حياة مصر بحياة الوفد نفسه وإثبات وجوده !

وحسبناهم يذكرون ما تصدع من بنيان وما تفكك من عرى بسبب سياسة «فرق تسد» فيقررون فى صراحة أن الغاصب علة العلل ويعلنون الجهاد الوطنى ضد الاحتلال حتى تستقل الأمة ويستقيم الحال فإذا بهم ويالالأسف يرددون من جديد نغمة حسن التفاهم والوداد ثمناً لكراسى الحكم بدل بث روح الكراهية والعمل على إذكائها ، ويتمسكون بما اتبعوه قديماً من سياسة الانتظار بدل إحراج إنجلترا أو العمل على إجلائها ويركنون أيضاً إلى المفاوضات فى حل القضية المصرية برغم مانعتها به سعد باشا نفسه بعد مفاوضته لوزارة العمال الأولى بأنها كانت دعوة إلى الانتحار ! (يحللونه عاما ويحرمونه عاما)[1] هذا بدل إعداد الأمة وقد تدهورت أخلاق بنيها واعتلت أجسامهم وسقمت عقولهم وانطفأت شعلة الوطنية فى نفوسهم . فأصبحنا خلواً من كل شىء ضعافاً فى كل ناحية : جهاد ولا جهاد ، تنافس بالعبارات الطنانة والجمل الرنانة ، إسراف فى الكلام ولا أعمال ، وتضليل بالأباطيل وسعى وراء الخيال يؤيدنا فى ذلك كل بصير ينظر إلى الأمور بالعين المصرية المخلصة ، ويجرد نفسه عن الهوى ، ويترها عن الحزبية ، بل يؤيدنا كل نصير للوحدة القومية ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ، ألا ساء ما يأفكون ؟

أما وقد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، وغفلوا عن قضية البلاد ، وأهملوا سودانها وغضوا الطرف عن تدخل الإنجليز السافر فى كل شأن جل أو صغر من شئوننا ليهيئوا الجو لما هو أشد وأنكى – لاتفاق شريف ؟ ؟ يصون مصالح بريطانيا فى مصر . !

فسوف لا يضن الإنجليز على الوفد بيدهم يمدونها إليه فى الوقت المناسب تنفيذاً لسياستهم المرسومة بعد أن حرموه ذلك الملمس الناعم الشهى أربع سنوات سويا . ويساومونه على الحكم وهو الطامع فيه والحريص على الحصول عليه وإن عز الثمن ، ويجلسونه فى كراسى الوزارة حيناً من الدهر حتى إذا ما وصلوا على يده إلى ما يريدون لفظوه ونبذوه كما لفظوه ونبذوه من قبل وأحلوا محله غيره وهكذا دواليك !

حسن ظن بالإنجليز وطمع فى الحكم ورجوع إلى مفاوضة هذا ما يستخلص من اجتماع المؤتمر وقراراته فهل هذه حقوق البلاد ، أو هذه سبيل الجهاد ؟ حسن الظن بالغاصب نغمة نعافها الوطنية الصادقة ، والحكم فى عهد الاحتلال مذلة وأداة هدم للأمانى القومية . والمفاوضة انتحار وتجربة خاسرة فحرام أن يروج الجميع للباطل وإجرام ألا يرتفع صوت أمام هذه النكبة ينادى فى الأمة ، حذار فإن السم فى الدسم ! . .

وجاء فى ختام النشرة : هذا وإنا نهيب كما أهبنا من قبل بجميع المشتغلين بالقضية المصرية الذين هم يؤمنون بأن مصلحة الوطن فوق كل اعتبار ، ويضعون الوطن فوق الجميع – وقد أظهرنا رأينا جريئاً من قبل ومن بعد وأيدت الحوادث صدق نظريتنا وطهر سريرتنا ونبل قصدنا – أن تتضافر معًا جميعاً على تنفيذ ما دعونا وندعو إليه من توحيد الصفوف وتطهير النفوس وجمع الكلمة لإقامة الوحدة القومية وتنفيذ برنامجها الوطنى العام . لقد بلغنا فاللهم اشهد .

* * *

وذكرت الوحدة فى رسالتها الخامسة ٣١ من مارس أو موقعة رشيد سنة ١٨٠٧ بتاريخ ٢٩ / ٣ / ٣٥ .

(١) سورة التوبة / ٣٧ .

حفل شهر مارس بأكثر من عيد – فوافق منتصفه عيد الأضحى وهو العيد الذى يجمع إلى ذكرى الفداء اجتماع المسلمين من مختلف البلاد والأجناس فى مكان طهور واحد ؛ ليشهدوا منافع لهم وليتعارفوا ويناقشوا أمورهم ، ويضعوا ما تصلح به أحوالهم من قواعد وسياسات ؛ كما احتفلت الحكومة المصرية بما سمى عيد الاستقلال وافتتاح مجلس النواب ، ومن الواجب تصحيح الأخطاء التاريخية إبعادا لسوء الأثر فى نهضة البلاد ، وإقصاء لما يعلق بالأذهان من تشويه للحقائق ، وآية ذلك أن البلاد ظفرت بجهودها بالبرلمان الحقيق لأول مرة وسلطته التأسيسية فى ٢٦ من ديسمبر سنة ١٨٨٢ هذا اليوم هو الموضوع الحقيق لذلك الاحتفال .

وفى ٢٦ من مارس احتفل بميلاد الملك . والشعب المصرى الذى يرى فى عرشه تشخيص قوميته ؛ كما يرى فيه تمثيل فكرة الوطن بعيداً عن الاختلافات الحزبية يدعو الله لمليكه بعاجل الشفاء . . .

وإذا كانت الحاجة لإحياء الأعياد عامة فإنها فى البلاد المرزوءة بالاحتلال الأجنبى أظهر وأكثر إلحاحاً ؛ لأنها فى مثل تلك البلاد تكون دفاعاً عن النفس وتغذية للروح وحداً للاعتداء المتجدد كلما أشرقت شمس .

ليس رزء مصر مقصوراً على ما تمتد إليه أيدى الإنجليز من مرافق ولا ما هدموا من حصون وسخروا من قوى ولا على ما أفسدوا من برامج التعليم واستزفوا من أموال الأهلين ، ولكن الرزء الكبير والهم المضنى المخيف هو ما أتقنوا وافتنوا فى تشويه صورة البلاد المعنوية السابقة لشؤم احتلالهم والعمل على قطع الصلة بين الأجيال التى ساء حظها بنبتها فى عهدهم وبين مفاخر آبائهم وأجدادهم حتى يضلوا من طريق « الاستنبات السياسى » إلى استعمار الأفئدة وتسخيرها فى استعمار الأهل والتراث . . .

وبعد أن بينا عبث الإنجليز بالتعليم والجيش والأخلاق إلخ . . . وبينا بإيجاز موقف الأجداد فى ٣١ من مارس سنة ١٨٠٧ يوم أن كتبوا بدمائهم صحيفة غالية فى صون حرمة الوطن والذب عن تراث الغابرين ختمنا الرسالة بالعبارة الآتية :

نعم ليس للقنابل أثر فى النفوس الأبية ، ولسنا نخاف على إخواننا إلا قنابل « الإغفال » وسموم التشويه فى المنطق والتاريخ .

إن ٣١ من مارس ذكرى قومية وعيد مجيد لا يضيرنا أنا لم نحتفل به فى الماضى ، ولكن يضيرنا ألا نبتعد بأنفسنا عن الخطأ وغمط الحقوق متى عرفنا الحق ومتى ظفرنا بخير ذكرياتنا غذاء للشعور ورفعة الوطن .

إنا ندعو الأمة بجميع طبقاتها للاحتفال بهذه الذكرى بكل المظاهر اللائقة بها بعد أن طوتها أحداث الزمان وما يذكر إلا أولو الألباب .

* * *

وذكرت الوحدة فى رسالتها السادسة « مصر بين شق الرحى » إلى أى طريق نحن مسوقون ؟ بتاريخ ١٦ من أبريل سنة ١٩٣٥ .

يعلم الله أنا لم نرد إلا الإصلاح ما استطعنا ، يوم أن قررنا أنه ليس من الكياسة فى شىء أن يكيل من تصدوا للزعامة فينا الثقة للوزارة جزافا . وهم يعلمون علم اليقين أنها شكلت وفق إرادة الإنجليز وهواهم . وأنه ليس من الإنصاف أن يريدوا الأمة على منح تلك الثقة بلا حساب (يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)[1] وحذرناهم وحذرنا الأمة يومئذ من عواقب تلك السياسة الخطرة ، ووددنا لو أعطيت الثقة عن جدارة

(١) سورة البقرة / ٩ .

بقدر معلوم ، وبالثمن المناسب لا نريد بذلك بخساً ولا تجريحاً .

ويعلم الله أنا لم نقرر إلا الحق ، يوم أن صرحنا بأن الوزارة الحاضرة إنما هى كالوزارات السابقة : كلها على حد سواء : بشكلها المحتل . وكلها – إلا ما ندر وفى بعض الحالات والنادر لا حكم له – آلة فى يد المحتل يحركها وفق هواه تنفيذا لخطته الاستعمارية التى لا يقضى وطره منها إلا على يد الوزراء وأضرابهم من أبناء البلاد ممن يفرطون فى حقوقها !

ونود اليوم أن نرجع بذاكرة القارئ الكريم إلى الماضى القريب ، لنبين له أن ما قلناه لا ريب فيه وأن سياسة الحكم عندنا ليست سياسة استقرار لمصلحة الوطن وبنيه – وإن تغيرت الحكومات – وأنا فى جهادنا (إن كان ثمة جهاد) لا نعمل على أساس وطنية سليمة . وأنا لا نعدو حد الكلام وإن حفزتنا الرغبة للعمل فلتنفيذ ما توحى به إرادة المحتل . وهى ولا شك تتعارض حقًّا والمصلحة العامة !

وما أصدق الحوادث إن نطقت ! وما أكثرها ! ولكنا مع الأسف سريعو النسيان !

وليس العهد ببعيد يوم أن زار اللورد لوند ندرى وزير الطيران البريطانى القاهرة لدرس تفصيلات المسائل العسكرية والجوية ؛ ويوم أن زار بعده السير مايلز لاميسون فلسطين ، ويوم أن عقدت فى القدس الشريف إثر تلك الزيارة اجتماعات سياسية وعسكرية . كانت وقتئذ موضع اهتمام الدوائر التى تعنى برقابة مجرى الأمور فى الشرق الأدنى ؛ لما لها من صلة وثيقة بزيارة وزير الطيران للقاهرة !

حصل ذلك والجو الدولى فى حالة غير عادية تنذر بعواصف أساسها المنافسة الاستعمارية والاقتصادية . وكل دولة تعد عدتها للطوارئ ، والجو المصرى فى حالة غير عادية أيضاً ، ولكن تنذر بالخراب والإفلاس الوطنى ، انقسامات حزبية وخلافات داخلية ، وانصراف إلى مفاضلات شخصية . أضعفت جبهتنا ، وفتت فى عزائم جهودنا حتى وصلنا إلى حالة نشرت التخاذل ، وأطمعت فينا الخصوم !

حصل ذلك وإنجلترا تفكر فى تغيير سياستها وتنفيذ نظرية (الإدارة الحسنة) التى أشار بها اللورد لويد فى كتابه من أنها يجب أن تكون غاية السياسة البريطانية فى مصر وذلك بالرجوع بمصر القهقرى إلى ما كانت عليه قبل الحرب من رقابة بريطانية للشئون الداخلية والخارجية تشمل الصغير والكبير .

وقد وجد الإنجليز الوسيلة للتدخل فى أخص شئوننا الداخلية وجدوها فى تصريح (٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢) – تلك العقدة السياسية الفريدة ، بل ذلك العمل النموذجى للدبلوماسية عريقة تجاه نهضة وطنية عنيفة وجدوها فيه لما حوى من نصوص مرنة مطاطة تتسع لمختلف التأويلات والتعليلات .

ولا يحتاج المرء لذكاء خارق ليلاحظ أن إنجلترا حولت دفة سياستها فعلا ، ولكن إلى اتجاه التدخل الصريح فى كل شأن والهيمنة على كل أمر . والإنجليز كما تعلم يرسمون الخطط ويهيئون لها الجو لتنفيذ على يد أبناء البلاد .

فكانت مؤامرة محكمة ، بدت برادرها فى أواخر عهد الوزارة السابقة التى عملوا على إحراجها ثم هيئوا الجو لإسقاطها وأسقطوها ، وما صحب ذلك من اجتماعاتهم بقادة اليوم يساومونهم على الحكم ، وما تلاه من تشكيلهم الوزارة الحاضرة .

وكانت مواد المؤامرة أن تتسيطر إنجلترا وتتحكم وأن تطيع الوزارة وتنفذ ! وأن يمهد قادة اليوم السبيل بتخدير الشعب وتضليله ، ليضل فى بيداء الثقة العمياء ، ويؤمن بالباطل ، ويراد على العسف ، ويرضى بما يجرى من مناقصات – ومصر هى الضحية – وقد كان !

أما الحكومة – وقد عبد لها القادة الطريق – فقابلوها بتلك الثقة التى زفت إليها زفًّا بلا ثمن ولا حساب ؛ لم يطل بها المقام حتى ألغت ما سموه دستور البلاد . وكان على الشعب المنكوب الحسن النية إلى أقصى حد – أن يتقبل – والفضل للمترعمين – الطعنة النجلاء ، وأن يقابل الإلغاء بالارتياح التام كما قابل تشكيل الوزارة بالثقة العمياء . برغم أنها وأدت ولم تبعث ، وأنها اجترأت على سابقة خطيرة فى تاريخ البلاد ، وأصبحنا بلا حياة دستورية . وعلينا أن نقنع بوعود – يعلم الله مدى صدقها - أن الدستور عائد لا محالة ! وعلينا أن نتجمل بالصبر حتى يعود لنا طائعاً مختاراً ! وأىّ دستور هذا الدستور الذى لم يكن من وضع جمعية وطنية . وتدخل فى وضعه الإنجليز واقتطع منه السودان ، ولم يكفل حقوق الأمة كاملة ؟ اللهم رحماك ؛ أليس فيكم رجل شديد ؟

وفى غيبة ما نعتوه بدستور البلاد – فاجأ الإنجليز الأمة بإثارة مسائل خطيرة تمس مقام العرش وتجرح عزة الأمة وتهين كرامتها ، وخرجوا على البروتوكول المتبع ، وكان على الشعب هنا أيضاً – والفضل للمترعمين – ألا يحرك ساكناً . وأن يقبل برضاء الوضع المعكوس لتلك المسائل التى أطفأها الإنجليز ، كما أشعلوها ؛ ليحركوها باطمئنان مرة أخرى متى آن الآوان .

كما أنهم كانوا بعد ذلك ظرفا فى دعايتهم السياسية يوم أن تكرموا علينا بالسماح بسفر البعثة التجارية إلى السودان مما لم يخل من مظهر التأييد لسياسة الأمر الواقع .

هذا وقد أدت الحكومة الأمانة ووفت بالعهد ، فكانت من الضعف حيث فرطت حتى فى كرامتها ، وطأطأت الهام وتلاشت إراداتها فى إرادة المحتل ، فكانت رهن الإشارة حتى ليخيل للمرء أنها أصبحت ألزم للمندوب البيريطانى ورجال داره من ظلهم : وآية ذلك أنها جددت عقود الموظفين الإنجليز الذين انتهت مدة خدمتهم ، وإلى مدد أطول ، وتعاقدت هى وآخرون ! وكان الواجب يحتم التخلص منهم ؛ وفى البلاد الكفاية من أبنائها ، وأغدقت على آخرين العلاوات وكانت سخيةً فى منح الدرجات . وفتحت اعتمادات مالية لتمهيد الطرق لفائدة المواصلات الإمبراطورية ، واحتكرت العطاءات للشركات الإنجليزية وإن كانت أعلى من الشركات الأجنبية الأخرى ، وعلى الخزينة المصرية أن تتحمل . بل على الفلاح المصرى والعامل المصرى أن يكد ويجد ؛ ليبيت على الطوى ويتخم غيره . فالشعب دائما غارم ، وأنشأت بين عشية وضحاها وزارة للتجارة ، ثم قررت تعيين خبير إنجليزى لها بمرتب الوزير ، وله حق الاتصال المباشر به برغم ما أحاط هذا الإجراء من غموض وما ساور الشعب من مخاوف أيدها سفر البعثة الاقتصادية لإنجلترا غداة ذلك القرار مودعة من كبار رجال دار المندوب ، تلك البعثة التى لم تصدر بها إرادة الشعب ، بل اقترحتها إنجلترا ، واختارت أفرادها بدعوى تحسين العلاقات التجارية بين مصر وإنجلترا التى لا ترى سبيلا لذلك إلا باتفاقية تضمن بها السيطرة التجارية على مصر ، واحتكار السوق التجارية وإقفالها فى وجه بضائع الدول الأخرى وإن كانت أرخص سعراً وأجود صنفاً ومنافسة البضاعة الوطنية ، وقتل الصناعات المصرية الناشئة التى بدأت تحيا فى البلاد ، والتحكم فى التعريفة الجمركية وإفساح المجال للمصانع الإنجليزية لتغرق بسلعها السوق المصرية ، مما يؤثر تأثيراً سيئاً فى إيراد الجمارك ويكون له أسوأ وقع فى نفوس الدول الأخرى ، ويزعزع العلاقات التجارية بيننا وبينها ، وإنك لتقرأ الدليل على ذلك فى تصريح دولة رئيس الوزراء فى حفلة الغرفة التجارية البريطانية قبيل سفر البعثة .

وأخيراً طلعت علينا الوزارة باتفاقية المورجيج (شركة الرهن العقارى) وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على إرضاء الإنجليز بأى ثمن ، مهما حاول بعض إقناع الشعب بأن التسوية فى مصلحته وستكشف الأيام ذلك بعد حين .

ثم انظر كيف ألقيت فى سلة المهملات مسألة المحاكم المختلطة والامتيازات الأجنبية ؟ وكيف فرضت علينا إنجلترا فرضاً – التأجيل ثلاث سنوات فيما يختص بالدين العام !

هذا بعض ما نكبت به البلاد فى الفترة القصيرة الماضية . وما عجزت الوزارة عن معالجة مشكلة الأزهر وغيرها من المسائل الإدارية المحلية إلا لأن الناحية الإنجليزية لم توح إليها بإرادتها بعد . وإلا فما بقيت معلقة لليوم ، وهذا منتهى الضعف وفقدان الثقة بالنفس ، وقد يفاجئنا الإنجليز كما تعودنا منهم بحلول متى بدت لهم مصلحة فى التدخل ، وستسير الوزارة ولا شك على هذا المنوال من التفريط والضعف حتى تشبع رغبة الإنجليز للنهاية من التدخل فى شئوننا والهيمنة على أمورنا ، وعندئذ يلفظونها كما لفظوا غيرها من قبل طالما أن الشعب مغلوب على أمره مسلوب الإرادة فى تسيير شئونه ! فعلى الشعب أن يتيقظ ويعمل !

أما قادة اليوم جزاهم الله فقاموا بنصيبهم من هذه المؤامرة المبينة على أحسن ما يكون ، وبرهنوا على أنهم ليسوا أقل من الحكام وفاء للعهد ، فكانوا عباداً للرياء السياسى . غفلوا عن فتك الأهواء السياسية بعقلية الشعب ، ولم يتورعوا عن تغرير العقول وتضليل الأفهام . وحاولوا إقناع الناس بالباطل . وحملهم على الإيمان بما يقولون من هراء ، وبما يراد بهم من عسف وجور .

سكتوا عن التدخل السافر ، وغطوا فى تومهم . وقد كانوا بالأمس يظهرون التململ من الحياد المزيف مما زاد الإنجليز جرأة على الحركة الوطنية واستخفافاً بها ! قنعوا بالفتات ، وفرحوا بفك أسرهم وقبلوه ثمناً لأسر الأمة وقد فقدت حياتها الدستورية ، فراحوا يحومون خلال الديار لا لإذكاء نار البغضاء ضد الاحتلال ولا للتحدث عن مصر المقسمة بين الاحتلال البريطانى والامتيازات الأجنبية والمنكوبة بالخصومات الحزبية ، ولا عن إنجلترا ونياتها ونشاط المندوب وتنقلاته التى لا تخلو من مغزى إلى الحدود المصرية وفلسطين والسودان ، فقد برهنوا أن شيئا من ذلك لم يدر فى خلدهم ، ولكن ليكيلوا المديح للوزارة على ما فرطت فى حقوق البلاد . وليتحدثوا عن أنفسهم وزعامتهم ، وما هم فيه من نعمة الثقة التامة ؛ فهذا كله همهم للتلويح به للسادة الإنجليز متى آن الآوان !

وكنا نود أن يفهموا أن واجبهم إعداد الأمة لمواجهة ما قد يسفر عنه الموقف الدولى من احتمالات خطيرة ، ولانتهاج سياسة قومية تجاه احتمالات موقف إنجلترا منا سياسيًّا وعسكريًّا . حتى لا تفاجئنا الحوادث الكبرى كما فاجأتنا سنة ١٩١٤ عندما أعلنت الحرب الكبرى ! وبدل أن نجنى استقلالاً فرضت علينا الحماية الإنجليزية فرضاً !

وأخيراً كنا نود أن نبرئهم من التآمر على مصالح البلاد ، ولكن أرأيت كيف أن قادة اليوم خريصون جد الحرص على تنفيذ نصيبهم من المؤامرة ؟ فلزموا الصمت أمام كل صدمة وتقبلوا كل لطمة ! وما خرجوا عن صمتهم عندما ضجت البلاد بخبر الخبير الفنى مما كشف الستر وفضح الأمر إلا للدفاع عن الوزارة وتبرير ضعفها وتفريطها إذ قال كبيرهم :

« إن الوزارة صديقة الأمة صادقة النية فى تحقيق آمال البلاد وحسبها فخراً أنها ألغت النظام البغيض وأنشأت جوًّا من الطمأنينة والعدالة ، ويجب أن تترك لها الفرصة لتعمل فى جو من الهدوء . أهرام ٣ من أبريل سنة ٣٥ تحت عنوان دولة النحاس باشا عند دولة رئيس الوزراء .

هذا كلام له خبىء : معناه ليست لنا عقول لهذا الحد بلغت الجرأة على التغرير بعقول الشعب وقد عاملهم الشعب على أساس الإكبار والإكرام ، وظل محتفظاً بهذه المعاملة برغم تعدد أخطائهم التى وصلت إلى حد التفريط الصريح فى حق الوطن .

وسينفذ القادة نصيبهم من برنامج المؤامرة لآخره طالما أن الوفاق تام بينهم وبين طرفى الإتفاق « الإنجليز والحكومة » وطالما أن الشعب فى غفلة عما يراد به فعلى الشعب أن يتيقظ ويعمل .

وإنا نأمل وقد طفح الكيل . ونطقت الحوادث : أن تكون الأمة قد ملت ما نحن فيه من صغار الحزبية وعبثها واستهتارها ، وفطنت إلى سر تلك الكلمات الطنانة التى كان يلقيها قادة اليوم بلا حساب عن الحرية والاستقلال ، والزعامة ، والتضحية ، والموت الزؤام ؛ إذ رأت المتصدرين للقيادة لا يتحرجون فى ألفاظهم وتعبيراتهم ، ولا يتورعون عن التناقض على حس الظروف والمقتضيات الحزبية ، وإذ رأت كيف أن أداة الحكم فى البلاد تخضع للأهواء الحزبية والأغراض السياسية والإرادة الإنجليزية ؟ وإذ رأت كيف أن الصحافة تطلع عليها كل صباح ومساء بألوان مسمومة من الجدل والتجريح . ولم تعد الأذن تسمع نغمة وطنية خالصة غير مشوبة بالروح الحزبية البغيضة ؟

نأمل أن تكون ساعة العمل القومى قد دقت ، فتلقى الأمة بالنذير فى آذان المنصرفين إلى المنازعات الحزبية والجارين وراء السياسة الاستعمارية بأنها خليقة أن تتصرف عنها وعنهم إذا لم يعملوا على إنهائها . ويطهروا أنفسهم من أدرانها . !

نأمل وكل أملنا فى الشباب الذين أخذوا يُصْبغون كل أعمالهم بصبغة القومية ، وشعروا أنها حقًّا صخرة النجاة مما تجلى بروعة فى حفلة الشباب القومية لإحياء ذكرى الزعيم الشاب الخالد الذكر مصطفى كامل . وكان له صداه فى أنحاء البلاد وحسب له المحتلون حسابا ، حتى إنهم منعوا باقى حفلات الشباب . ومما نراه اليوم من إعداد الشباب حفلة قومية أخرى لمضى خمسة عشر عاما على تأسيس بنك مصر الوطنى وما نلمسه من الروح القومى فى جمعيات الشباب الناشئة التى تعمل فى شتى نواحى الحياة . وأول الغيث قطر ثم ينهمر .

وليس لما نحن عليه من علاج مادام الاحتلال البريطانى باقياً ، ومادام نظرنا يصطدم هو وجيوش الاحتلال تدوس بأقدامها ثرى الوطن المقدى والراية البريطانية ترفرف فوق القلاع والثكنات إلا أن تكون لنا سياسة قومية نسير على هديها ، وأن نقوى خطوطنا بالوحدة القومية . ونزود جبهتنا بميثاق قومى يعلو عن منازعات الأحزاب والأشخاص . سبيلنا إلى ذلك قوة الإيمان وسلامة العقيدة .

« وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ماآذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون »[1] « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله »[2] .

وذكرت الوحدة فى نشرتها السابعة مصر بين شتى الرحى – ٧ عود على بدء بتاريخ ١٤ مايو سنة ١٩٣٥ .

ربنا زاغت القلوب والأبصار ، وعمت الفتنة فألهمنا السداد فى الرأى ، والتوفيق فى العمل ، واهد القوم الذين لا يفقهون إنك أنت الوهاب !

يأتمر الناس بنا وتتابع الحوادث سراعا ، وتشتد الحالة خطورة ، وينذر الموقف بسوء المصير . . . والكل معقودوا اللسان مكتوفو اليدين ، يرون ويسمعون ، والأقدار تضحك وتهزأ !

ويشهد الله أنا ما فرطنا فى نشراتنا السابقة من شىء : فسفهنا فكرة تعدد الأحزاب فى البلد المحتل ، وبينا بوضوح أن الاحتلال الأجنبى أساس كل ما حل وما يحل بنا وبوادى النيل من مصائب ومحن ، وأن الجهاد ليس قتالاً بين أبناء البلد الواحد فى سبيل الحكم ، وأن الوطنية ليست فى مسالمة العدو والتفريط فى حقوق البلاد . وأن

---

(١) سورة إبراهيم / ١٢ .

(٢) سورة التوبة / ١٠٥ .

السياسة القومية هى القاعدة (الوحيدة م للجهاد الوطنى السليم ، وأن الوحدة هى منار الهدى إن تلمسنا السبيل فى وسط هذه الدياجى وقد تفرقت بنا السبل !

ولكنا مع الأسف الشديد لانزال نظلم أنفسنا بقطع الصلات والتنابز بالألقاب وتمزيق أواصر الإخاء ، والانقسام إلى شيع وأحزاب ، تظاهر كل شيعة رجلها ، وتتربص كل حزب بالآخر ، واتخذ الكل إلهه هواه ، وإن تظاهر الكل بمحبة السلام ، وتمشدقوا بخدمة الوطن المقهور والشعب المغلوب !

هذا والعدو بفضل إخلاصه لقضيته ، وفنائه فى خدمة مبدئه – دائما إلى الأمام – يسدد سهامه إلى صدورنا ، بل يعمل بأسلحته فى أقفيتنا ، منفذاً فينا مشيئته ونحن بفضل الانقسامات الحزبية والمنازعات الداخلية والفناء فى خدمة المصلحة الشخصية دائماً إلى الوراء ! نفسح له الطريق : قولنا لغو ، وفعلنا لهو ، ووطنيتنا هباء !

واليوم وقد جل الخطب واشتد الكرب وبلغ السيل الزبا – هل من عمل حازم حاسم يرد إلينا أمرنا ، ويحمى حوزتنا ، ويقطع على الإنجليز سبيلهم ؟ ويعكس عليهم غرضهم ؟

إننا – وقد جزعت نفوسنا من هول الموقف – نبرئ ذمتنا ونبين الطريق وقد غمرت القوم الضلالات ، ونرفع الصوت عاليا وقد خفتت الأصوات ، فنعود إلى ما بدأنا به نشراتنا فى العام الماضى من الدعوة إلى التأليف بين القلوب وتوحيد الصفوف بإلغاء الأحزاب وتكوين جبهة متحدة حتى تسدل الستار الكثيف على مظهر الانقسام إلى وطنيين ودستوريين ووفديين وشعبيين واتحاديين . . . إلخ ونصبح كتلة قومية متحدة أشداء على الأعداء ، رحماء بيننا نعمل على أساس ميثاق قومى عام لتحرير وادى النيل من جميع مظاهر الاحتلال .

ولئن كانت الوحدة القومية من القديم هى الدعامة للجهاد الوطنى السليم – إننا أحوج ما نكون إليها الآن ، لتنقذ الموقف .

هذا قول فصل وما هو بالهزل ، بل هذه سبيلنا ندعو إليها بالحكمة والموعظة الحسنة ، وهى بإذن الله تعالى سبيل الجميع .

أما أن نلج فى طغياننا ، ونوغل فى قطع علائق الأخوة ، ونحسن الظن بالغاصب نستلهم منه الوحى ونتآمر نحن وهو على الوطن وأبنائه ، ونركن إلى سياسة الانتظار – والعدو آخذ بناصيتنا – ونزين بعضنا لبعض سوء ما وصلت إليه الحال ، ونخفف من وقع تلك الطعنات الدامية واللطمات القاتلة التى أصابت الوطن وأصابتنا فى الصميم ، بل نبرر للعدو عدوانه ونهرب من ميدان الجهاد إلى ساحة الموت والأسر ونغفل عن الأمانى القومية ، ونهتم بالمطالب الحزبية بالتهالك على الحكم واستجداء دستور أعرج لا نملك حتى عودته ناقصاً بالسخرية الزمن فهذا منتهى الإجرام ومنتهى الجحود بحق الوطن ، وهذا هو الضلال البعيد .

ولخيرٌ المحر الأبى – إن وضعنا أصابعنا فى آذاننا وأخذتنا العزة بالإثم فمز الوفاق بين أبناء البلد الواحد ، حتى فى وقت المحنة الوطنية – أن يموت كريماً من أن يعيش فى جو طغت فيه النفعية وعفا فيه الوفاء !

ولكنا لاتزال لنا بقية أمل فى أقطاب المصريين – وقد لبوا مع تنافرهم دعوة المندوب الحالى فى أوائل عهدنا به (وهى دعوة الباطل لمصلحة إنجلترا) فاجتمعوا جميعاً بداره وجهاً لوجه – أن يلبوا دعوتنا وهى دعوة الحق لخير مصر . فنرى منهم إن كانوا حقًّا برره بوطنهم – خطوة جريئة إلى إنكار ذواتهم ، وتناسى أحقادهم وتأليف قلوبهم وتوحيد كلمتهم ؛ لنصبح بنعمة الله إخواناً .

بهذا تتكون الوحدة القومية ، وتتوحد الغاية ، وتتوحد المجهودات ، وتتوحد القيادة ، ونصل بالسفينة إلى بر الأمان ، وهذا هو النصر العزيز .

وأخيراً

سكتت الوحدة وتركت الحوادث تنطق ، وللحوادث فعلها فى النفوس ، وقد جاءت مؤيدة كل ما ذكرته الوحدة بنشراتها السابقة ، فلما طفح الكيل ولم يبق فى طوق الصبر منزع – قام الشباب ثائرتين للكرامة الممتهنة والحق المهضوم والعزة المجروحة ، وصادف ذلك تصريح « هور » مما جعل بعضاً يظن خطأ أنه السبب المباشر لتلك الفورة الدامية ؛ كما اعتبر الحركة آخرون أنها ثمن للدستور .

وهنا رفعت الوحدة صوتها البرئ عالياً ، وعادت إلى سيرتها الأولى تصحيحاً للأوضاع فذكرت فى نشرتها الثامنة بعنوان « ثمن الدماء » بتاريخ ٢٣ / ١١ / ٣٥ مايأتى :–

ثمن الدماء

عندما نشرت الصحف كلمة لشباب الجامعة رد ما اختتمت به الآمال إلى القلوب بعد أن خيف عليها أن تتوارى طى الأحداث . هذا الختام الذى يعتبر عهداً ليس أحرى من شباب البلاد بالأخذ به وهى دعوتهم . « أن تكون الجبهة المصرية على أساس المطالبة بالاستقلال التام لمصر والسودان » .

وإنما كانت قطرات الدماء الزكية التى خضبت أرض الوطن تسطيراً لهذا العهد بأغلى مداد على أطهر صحيفة .

وما كان ثائرها إلا الصرخة الدامية المدوية لانهيار سيل الافتيات على حقوق الوطن المنكود من غاصبيه ، فنحن اليوم ندعو إخواننا ومواطنينا ألا يرخصوا هذا الثمن الغالى بالتحول إلى تفصيلات تلهى عن اللباب الذى من أجله تهون التضحية . وليكن الاتجاه ذلك العهد الذى فارقتنا عليه مهج الضحايا .

أما الدستور وهو شكل الحكم الذى لا يخرج عن كونه ترجمة البلاد من سياسة لشئونها الداخلية – فإنه منا ولنا وليس يشرفنا أن يكون مطلبنا أمام الغاصبين ، فإن من أفتك العلل بالبنيان القومى أن يبدر منا ما يسوغ لهم بيننا تدخلاً أو منة فنحن أحرار فى نظام حكمنا ، وقد أيد مليك البلاد فى رده التاريخى مشاركة الشعب فيما يرتضى من نظام ، وليس للبريطانيين أن يشاركونا فى هذا بأى وجه .

وإن ما قاسته البلاد من الويلات الأخيرة ليس إلا نتيجة للضعف الذى جعل الغاصبين موضع الاستشارة وشهواتهم موضع التنفيذ .

وكان أن قام الشباب البريئون – والشباب رجاء الوحدة القومية وعدة المستقبل – منادين بالوحدة القومية مقدمين فى سبيلها أثمن ما يملكون من وقت ومال وروح . وسطروا بدمائهم الطاهرة الزكية صفحة مجيدة فى تاريخ النهضة القومية . وكان لذلك الموقف روعته وجلاله ؛ وكان لزاماً على القادة أن يكونوا جبهة متحدة .

تكونت الجبهة وليتها ما تكونت : وهى تحوى جراثيم فنائها ، تكونت لا على أساس ما نادت به الوحدة القومية ، ومازالت تنادى به من وجوب عدم تعدد الأحزاب فى بلد محتل ، وبضم الصفوف وتوحيد الجهود أمام الغاصب والعمل على أساس ميثاق قومى عام ؛ فالأحزاب وياللأسف لاتزال قائمة ؛ والنعرة الحزبية إن خفتت حينا

فهي نار من فوقها رماد . والإجماع إن كان هناك حقًا إجماع – هو ويا للعار إجماع على وسيلة لا غاية ، وسيلة فاشلة خاسرة هي المفاوضات ! ومتى ؟ في وقت تسيطرت فيه الروح العسكرية البريطانية وتحكمت واتخذت من أرض مصر ومائها وجوها ميداناً لاستحكاماتها الحربية . ومرجل السياسة الدولية يغلي ، والجو ينذر بالشر .

نعم وجد الإجماع ولكنه إجماع شر من القطيعة التي كنا عليها ! إنه إجماع عملت له إنجلترا وسعت له بكل قواها ، وألحت في طلبه يوم أن تبينت أن رمز الإجماع وغاية أمانينا مفاوضة على أساس مشروع سنة ٩٣٠ بل إن إنجلترا اشترطت الإجماع أساساً لقبول المفاوضة (فهل من مذكر؟) .

إنه إذن إجماع وليد إرادة إنجلترا ولمصلحتها لا لمصلحة الوطن المنكوب ، إجماع تطمح إنجلترا أن تصل من ورائه إلى مالم تتمكن من تحقيقه لليوم (ولن تتمكن بإذن الله طالما أن فينا نفساً يتردد) وهو جعل مركزها بوادي النيل شرعيًا – فلا كنا ولا كانت الحياة إن وصل بنا الإجرام إلى حد تمكينها من ذلك .

وهو فوق ذلك إجماع تريد به إنجلترا أن تسجل علينا أمام العالم إنا أمة وإن نادى القادة فيها بعبارات الحرية والاستقلال والتضحية لاتزال من سقم التفكير وقصر النظر وصغر الأحلام بحيث نضع حياتنا واستقلالنا موضع المساومة !

والأنكى من هذا أن تطالب الأمة المسكينة بالإخلاد إلى الهدوء والسكينة وعدم تعكير الجو ، ولماذا ؟ لإلزام الإنجليز الحجة ! لقد هزلت ، فكأننا لانزال يعوزنا الدليل على سوء نية القوم وهم لم يتركوا للشك مجالاً في سوء نواياهم فهم الذين كانوا دائماً لمصر بالمرصاد يغتنمون الفرص إن لم يخلقوها خلقاً !

وهم الذين أوجدوا في جو السياسة بادئ بدء «نغمة طريق المواصلات الإمبراطورية ، وذلك منذ دخل نابليون مصر ، وهدد الهند سنة ١٧٩٧ !

وهم الذين كانوا يحلمون من عهد بعيد بضم وادي النيل إلى التاج البريطاني ، وقد بسط ذلك الحلم اللذيذ المستر غلاستون سنة ١٨٧٧ في تصريحه المشهور « إنا إذا نزلنا في مصر ذهبنا إلى السودان ، وإذا ذهبنا إلى السودان مددنا أيدينا من خط الاستواء إلى جنوب أفريقيا ، وأتممنا تأليف إمبراطوريتنا الأفريقية !) .

وهم الذين قال مندوبهم في اللجنة الدولية السير ويفرس ويلسون وقت أن وقعت الأزمة المالية بمصر في عهد إسماعيل : (إنه لا ينقذ مصر ولا يصلح لحكمها سوى الإنجليز يتولون أمرها ! » .

وهم الذين جعلوا حجتهم في البقاء في مصر بعد أن تسنى لهم احتلالها سنة ١٨٨٢ « الاضطرابات السياسية بمصر وخطر المهدية بالسودان » !

وهم الذين دبروا مؤامرة إخلاء السودان وإعادة فتحه بأموال وجنود مصرية ، ليضعوا هم أيديهم عليه ! .

وهم الذين صرحوا على لسان الكولونيل مونتايل سنة ١٨٩٤ بعدما فشلت المفاوضات بينهم وبين الباب العالي سنة ١٨٨٩ لجلائهم عن مصر : إن إنجلترا لا تجلو عن مصر إلا بعد أن تمتلك السودان وطريق بربر إلى سواكن ! » .

« وصرحوا على لسان المستر بلفور في مجلس العموم سنة ١٨٩٦ بمناسبة حملة كتشنر ورغبة إنجلترا في إقناع الدول وقتئذ بالسماح بأخذ نصف مليون جنيه من احتياطي صندوق الدين لذلك الغرض : « إنا لا نرجع عن عزمنا وحيثما وضع الجندي الإنجليزي قدمه فهو يبقى ولا يترزحزح ! » .

وهذا لا يخرج في شيء عن تصريح السير إدوارد غراي في السنة التي قبلها (١٨٩٥) : (حيثما نزل جندي إنجليزي ظل أبد الدهر !) .

وهم الذين صارحونا . القول يوم أن قال اللورد ملنر للمرحوم سعد باشا : (نحن نبحث عن مصر منذ مئة عام !) .

وهم الذين ابتكروا لنا اليوم فى قاموس السياسة « حماية الاستقلال ! » وهم الإنجليز هم الخصوم وكفى : « قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » .

هذا ولا يفوتنا إنصافا للحق أن نقرر أن رائدهم مصلحة وطنهم ، فلا نعيبهم من هذه الناحية ، بل نقدر فيهم الوطنية الصادقة ؛ وإنما العيب عيبنا وعيب قادتنا الذين لم يسلكوا بنا طريق الصراحة وأمعنوا وبا للأسف فى الالتواء والتضليل .

ومن نكد الدنيا علينا أن نطالب ونحن أصحاب الحق المغتصب بالتدليل على حسن نيتنا ، والغاصب جاد فى افتياته واعتدائه على الحق والكرامة بالقول والفعل . إن هذا إلا مضيعة وأى مضيعة ؟ وإنه لسبيل الخيبة والإفلاس .

إنا نسجل أمام العالم أن روح الشباب لا تقر ما وصلنا إليه من قلب للأوضاع ، كما نسجل أن هذه المناورة الأخيرة مناورة إظهار الأمة راضية بالإجماع على المفاوضة إن هى إلا مناورة إنجليزية ، بل هى حلقة من سلسلة تنفيذ مؤامرتهم لهدم الإمبراطورية المصرية وامتلاك مصر والسودان ! .

وكنا نود أن نكبر رجالنا عن أن تتكرر المأساة على أيديهم مع قوم حنثوا فى الأيمان ، ونكثوا بالعهود ولم يراعوا فى الحق إلاً ولا ذمة ! .

وكنا نود الإجماع ونرحب به ، بل نفديه بمهجنا لو كان إجماعا على المبدأ يجب ألا يدين مصرى بمبدأ سواه ، مبدأ الجلاء .

وآخر ما نرجوه من أنصار المفاوضة غداة فشلها وستفشل (إن طوعاً أو كرهاً) أن يتوبوا توبة نصوحاً وأن يؤمنوا معنا بأن القضية المصرية قضية دولية ليس لإنجلترا أن تنفرد بها ، وليس للمصريين أن يمكنوهم من ذلك ، وبأن مطلب الأمة استقلال وادى النيل استقلالاً تامًّا وآية ذلك جلاء الجنود البريطانية عن أرض الوطن ، وبأن الاستقلال لا يتجزأ ولا يكون أبداً محل مساومة ، فهو لذلك لا يمنح منحاً بل يؤخذ قسراً .

فلم نسمع فى التاريخ أن الأمم المغلوبة على أمرها استقلت بالمسالمة وحسن الظن والاستجداء والمفاوضة ! وإنما علمنا التاريخ أن دون الاستقلال أرواح المجاهدين ! .

فالغاصب لا يعطى طائعاً مختاراً ولا يذعن إلا مرغماً ، وبأن السبيل إلى ذلك كله العقيدة السليمة والإيمان الثابت بالحق ، والفعل على تكوين الأمة تكويناً صحيحاً فى جميع نواحى الحياة ومظاهرها .

هذا وإن عز الأنصار اليوم فسيعتز الحق بأنصاره بالغد وإن زعم قوم اليوم أنها صيحة فى واد فسيعلمون غداً أنها صيحة الحق وستقلع الأوتاد !

الوحدة القومية لاستقلال وادى النيل

ص .ب .١٦٤٤

القاهرة

٢٩ من فبراير سنة ١٩٣٦

---

(١) سورة آل عمران / ١١٨ .